رَبِيعُ اللؤلؤ

سلسلة روايات الوقف
الروايــة الثــانية

غرفة الرياض
Riyadh Chamber

لجنة الأوقاف
بغرفة الرياض

ح دار مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف
ربيع اللؤلؤ؛ مؤسسة ساعي لتطوير الأوقاف - الرياض
١٤٤١هـ
٨٠ ص؛ ١٤ × ٢١ سم
ردمك: ٤-٨-٩١٣٤٠-٦٠٣-٩٧٨
١- القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي: ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٤١/١٢٩٠٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/١٢٩٠٠

ردمك: ٤-٨-٩١٣٤٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع والنشر محفوظة
للجنة الأوقاف بغرفة الرياض

الطبعة الاولى
١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

منذ تأسيس لجنة الأوقاف بغرفة الرياض في عام (1422هـ / 2011م) في الدورة الخامسة عشرة لمجلس إدارة الغرفة، حتى إعادة تشكيلها في الدورة السابعة عشرة لمجلس إدارة غرفة الرياض، وهي تواصل عملها في خدمة قطاع الأوقاف من خلال ضمِّها لنخبةٍ من ذوي الخبرة والدراية بجوانب ومستجدات قطاع الأوقاف.
وقد تبنت اللجنةُ من لحظة انعقاد اجتماعها الأول في مطلع نوفمبر 2016م في رؤيتها أن تكونَ مرجعًا لرجال وسيدات الأعمال والواقفين في تأسيس وتنمية الأوقاف وتطويرها، جاعلةً نصب عينيها رسالةً هي نشرُ ثقافة الأوقاف لقطاع الأعمال، وتشجيع الأوقاف القائمة ومساندتها؛ من خلال المشاركة في الحلول التشريعية والتنظيمية الوقفية، وصناعةِ التكامل والتنسيق بين الجهات الوقفية والحكومية، والإسهامِ في تحقيق رؤية المملكة العربية السعودية 2030. وقد سعت اللجنةُ إلى مناقشة مستجدات القطاع وتبني المواقف المستثمرة لتلك المستجدات من أجل تطوير القطاع، وإقامة الشراكات الفاعلة مع العديد من الجهات العامة والخاصة لتذليل العقبات، والتعامل مع التحديات بإيجاد الحلول المناسبة لإزالتها.
كما سعت لجنةُ الأوقاف خلال مدة عملها إلى إقامة عدد من الشراكات المثمرة لخدمة قطاع الأوقاف، واستثمارها في توحيد الرؤى، وصنع البرامج نحو التطوير، والرقي بالعمل الوقفي تكاملًا مع جهات الاختصاص.
تعتبر ثقافةُ الوقف والأوقاف من الثقافات الراسخة في المجتمع الإسلامي، بل قد تكون الشعوبُ الإسلاميةُ من أوائل الموقفين، وقد عملت لجنةُ الأوقاف منذ تشكيلها على تبني العديد من الأنشطة والفعاليات لنشر الوعي الوقفيّ، وفي ذلك تبنت تنظيمَ ديوانية الأوقاف التي من خلالها يتم استضافةُ ذوي الخبرة في القطاع الوقفي في مختلف الجوانب التنظيمية والإدارية والشرعية، وإقامة ملتقى الأوقاف الذي يستقطب قاماتٍ وقفيةً وتجاربَ ثريّةً للارتقاء بالعمل الوقفي، والذي يعد رافدًا من روافد الرؤية الوطنية الطموحة، ومن ضمن نشر ثقافة الأوقاف ورفع مستوى الوعي بالدور الريادي للأوقاف في التنمية المستدامة سعت اللجنةُ لإصدار عدد من المطبوعات ذاتِ الطابع التوعويِّ التحفيزيِّ وذاتِ الطابع التوثيقيِّ، وكان من تلك الإصدارات سلسلةٌ لعدد من روايات الوقف، والتي تحكي التوعية بالوقف بطريقة جديدة وفريدة، والتي يسعدني بأن أهديَكم إياها نيابةً عن زملائي أعضاءِ لجنة الأوقاف.
وكُلي أملٌ أن تجدوا فيها ما يسعدكم، وتقبلوا وافرَ التقدير والمحبة.

أخوكم / رئيس لجنة الأوقاف
عبدالله بن فهد العجلان

مشـــــــعل (١)

لم تتحدث منذ الصباح... وهذه ليست علامة جيدة... هذا يعني أنها في حالة النسخة الأخرى من مريم، النسخة الجديدة التي بدأت تظهر بكثرة في الفترة الأخيرة...

بدأت ألحظ تغير سلوكها قبل أيام، ولكنه كان تغيراً طفيفاً لا يتعدى بعض الشرود أو قلة التركيز، أما اليوم فهي تبدو مختلفة تماماً
أنا أحفظها عن ظهر قلب.. اثنا عشر عاماً من الزواج كفيلة بأن يصبح فيها هذا الكائن الملائكي كتاباً مفتوحاً أحفظ كل ما فيه غيباً حتى الحواشي والفهرست وأرقام الصفحات، ولذلك لا تفلح محاولاتها بالإنكار أو التظاهر بأن كل الأمور طبيعية...

أصبحت أدرك من نظرة واحدة إلى وجهها ما إذا كانت سعيدة أو حزينة... متوترة أو غاضبة...

أعرف متى يمكنني التحدث إليها ومتى يجب علي أن أتركها وشأنها لبعض الوقت...

والأهم كنت أعرف من لغة جسدها عندما تقول الحقيقة وكذلك عندما تراوغ وتحاول أن تلتف على الحقائق بطريقة أو بأخرى...
ببساطة يكفي أن تنظر إلى عيني أثناء حديثها لأعرف أنها تقول الحقيقة، وما دون ذلك فهي مراوغة لا محالة...

رغم أن يوم الجمعة هو اليوم الذي تنتظره بفارغ الصبر لنقضي بعض الوقت معاً كما تقول لي دائماً وكما أشعر أنا أيضاً، بعد أسبوع أقضي معظمه بين التدريس في جامعة أم القرى كأستاذ للاقتصاد الإسلامي نهاراً ومتجولاً بين عدة شركات أدير حساباتها مساءً،
لكن اليوم لا يبدو كيوم كانت تنتظره منذ أيام...

كنا قد صلينا الفجر معاً في جماعة وحتى ذلك الوقت كانت بخير قبل أن أعود لآخذ غفوة صغيرة بعد صلاة الضحى... وعندما استيقظت صباحاً كانت على هذه الحال!

وها أنا ذا أستعد للخروج إلى صلاة الجمعة ولكن الحال لم يتغير...
إجاباتها مقتضبة وردود أفعالها بطيئة أو لا مبالية ورغم أنها تسلم نفسها تماماً للتعب والإنهاك إلا أن ذلك ليس السبب في حالها ذاك... متأكد أن هناك ما يشغل تفكيرها ويجعلها على هذه الشاكلة

لا أدري إن كان اقتراب موعدنا مع الطبيبة الجديدة هو ما يوترها... ولكن طالما أنها أعطت إجازة مجانية (لنازيفا) عاملة الخدمة الآسيوية في المنزل لترتاح في غرفتها وراحت تقوم هي بكافة أعمالها فهذه إشارة إلى أنها ليست على ما يرام

إنها تفرغ توترها بالأعمال المنزلية... حتى إنها تعيد فعل بعض الأشياء التي قامت بها نازيفا مسبقاً... المهم أن تحرك يديها بفعل ما
تمسح الغبار عن كل شيء مهما كان لامعاً... تعيد ترتيب الكتب -المرتبة

أصلاً- في المكتبة.... وإذا كان الأمر متأزماً كما هو اليوم فإنها لن تتوانى عن تنظيف كل ما يقع في طريقها داخل المطبخ...

«هل نحن متخاصمان؟» قلت لها ممازحاً وأنا أستند على الإطار الخشبي لباب المطبخ الواسع... احتاجت بعض الوقت لتلتفت إلي وتطلق ابتسامة باهتة ثم تهز رأسها بالنفي... «أبداً» قالت وهي تمسح عرق جبينها بكمها...

«هل هناك ما يزعجك؟» قلت وأنا أقترب منها فاستنسخت حركاتها في الجواب الأول لتعطيني نسخة كربونية منه...
من خلال معرفتي بها كانت إشاراتها تقول: أرجوك اتركني لوحدي قليلاً لن أستطيع الكلام، ولن أتحمل الدخول في أي نقاش...
وآثرت أن أفعل ذلك

غادرتُ وأنا أفكر كم تغيرت هذه المرأة التي وهبها الله لي فجعل منها سكني وزرع بيننا المودة والرحمة حتى إنني كنت أشعر أحياناً أن الله يحبني بأن هيأ لي امرأة مثل مريم لتكون زوجة لي... أليس عز وجل هو القائل ﴿الطيبون للطيبات﴾؟ هل كنت طيباً عنده إلى هذا الحد حتى يهبني امرأة كمريم؟

كنت عائداً للتو من كندا حاصلاً على شهادة الماجستير في الاقتصاد بعد دراسة استمرت بضع سنوات هناك وكنت عازماً على نيل شهادة الدكتوراه من جامعة أم القرى...

لم أعجب يوماً بالعيش في تلك البقعة الواقعة في أقصى شمال الكرة الأرضية ولولا أنني كنت مبتعثاً إلى هناك لدراسة الاقتصاد لما فكرت بالبقاء يوماً واحداً، كنت أعد الأيام والساعات بانتظار أن أنهي الدراسة وأعود إلى المملكة حيث نشأت وترعرعت

كنت قد تخطيت الثلاثين ببضع سنوات وكان ذلك إنذاراً من درجة اللون الأحمر[1] بالنسبة لوالدتي ولذلك فقد بدأت على الفور تحركاتها المكثفة للحصول على عروس لابنها القادم من الخارج...

لم تمض سوى أسابيع قليلة على عودتي حتى رتبت أمي موعداً مع أهل مريم...

في البداية كنت أرفض الأمر تماماً، لم يكن الزواج يومها على سلم أولوياتي... كانت أمامي رسالة الدكتوراه وبعدها كان علي أن أجد عملاً، الطريق طويلة ولا أدري ما الذي ينتظرني... وكانت أمي تقول لي دائماً: الزوجة والولد رزقهما يأتي معهما فلا تقلق...
على كل حال كان والدي رحمه الله قد ترك لنا ثروة لا بأس بها قدرت أنها ستعينني بالإضافة إلى عملي كمحاسب ريثما أكمل دراستي وأحصل على الدكتوراه...

ورغم كل ذلك ورغم إيماني الثابت والراسخ بأن الله عز وجل هو الرزاق، إلا أنني لم أقتنع بضرورة الزواج في تلك الفترة بالتحديد، لأن هناك واجبات ستترتب علي تجاه تلك الزوجة التي ستصبح جزءاً مني، وهذا يعني أن الوقت المخصص للتركيز على شهادة الدكتوراه سيتقلص
ولذلك لم أوافق على الذهاب مع أمي وأخواتي إلا بعد أن رأيت الحزن والعتب في عيني والدتي وهو الأمر الذي لا طاقة لي باحتماله على الإطلاق...

قررت الذهاب يومها وكنت أفكر في أن أخترع حجة ما لعدم القبول بهذا الزواج، سأقول: إن الفتاة لا تناسبني... أو ربما أقول إنني لم أناسبها، أو لم يكن هناك كيمياء بيننا، ألم تشرع الخطبة في الأساس لهذا الأمر، لن يكون هناك أي تجاوز للشرع إذن...

(1) هو لون درجة التأهب القصوى في نظام التحذير للأمن الداخلي المتبع في الولايات المتحدة الأمريكية والمكون من خمسة ألوان تبدأ من الأخضر وهو الدرجة الدنيا من التحذير يليه الأزرق فالأصفر فالبرتقالي فالأحمر.

سأقول أي عذر من الممكن أن يجعلني في حل من هذا الارتباط المفروض تحت تهديد عدم الرضا وقلة البر بوالدتي لا أكثر ولا أقل...
عندما دخلت مريم علينا لم أصدق ما حدث لي! في لحظة واحدة تلاشت كل الأعذار التي فكرت بقولها لأمي وأنا في طريقي... كانت مريم استثنائية في كل شيء... في جمالها وأدبها وحيائها وعلمها... سبحان الخالق قلت في نفسي ثم أرخيت بصري عنها خشية أن أوقع نفسي في نظرة تميل نحو الحرام...

كانت مريم حينها في الرابعة والعشرين من عمرها وكانت قد تخرجت حديثاً من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة أم القرى أيضاً وكنت أكبرها بعشر سنوات كاملة... ولكن ذلك لم يشكل حاجزاً بيننا، وأظن أن ما وقع في قلبي تجاهها في ذلك اليوم وقع في قلبها تجاهي أيضاً...

لم أعرف كيف مرت الأسابيع العشر ما بين الخطبة وحفل الزفاف...
دون أن أشعر وجدت مريم تسكن معي في بيت واحد، البيت الذي كان مجهزاً لأتزوج به حتى قبل أن أعود من منفاي الدراسي، أنا وحيد عائلتي من الذكور إضافة إلى ثلاث أخوات متزوجات وتعيش أمي مع إحداهن لأن زوجها يعمل خارج السعودية وقد يأتي مرة أو مرتين فقط خلال العام...

كان زواجي من مريم أشبه بحلم في غاية الجمال والروعة... حلم أفقت منه لأجد أن واقعه وصحوه أجمل من منامه بكثير... إنها نعمة من الله لي... نعمة لطالما شكرت الله عز وجل عليها حتى في سجودي...

بعد الزواج كانت مريم خير معين لي خلال مناقشة رسالة الدكتوراه التي كنت خصصتها لدراسة الاقتصاد الإسلامي، ساعدتني كثيراً في البحث عما يعزز أطروحتي لرسالة الدكتوراه

تطوعت ذات مرة لمساعدتي في البحث أحد المواضيع المدرجة ضمن موضوع الدراسة وكانت مساعدتها تلك قد فتحت لي باباً لإثراء الرسالة وتدعيمها... عندها علمت كم أن مريم زوجة لا يمكن أن تعوض...

استبشرت يومها بأنني وفقت في اختيار أم لأولادي، أم بوسعها أن تنقل لهم ما لديها من علم وخير...
كنت مستغرقاً في البحث والدراسة عندما ألقت أمامي ذاكرة (فلاش ميموري) لتخبرني أن البحث الذي تحدثنا عنه في الليلة السابقة قد تم وقد جمعت لي من الشواهد والأمثلة ما يخصر علي يوماً كاملاً من البحث والتدقيق والتمحيص

في الليلة السابقة كنت أتحدث معها عن المجهود الذي أبذله في هذه الدراسة وأفضي لها بما يثقل كاهلي من التعب نتيجة لذلك،
وتحدثت إليها عن بعض القضايا والأحكام المتعلقة بالاقتصاد والمال الذي هو عصب الحياة، وأخبرتها عن النظرة إلى هذا العصب من حيث وظيفته الحقيقية كعبادة مالية لها أهدافها وغاياتها داخل المجتمع الإسلامي، وبمعنىً أعم تحدثت عن النظرة إلى ارتباط الاقتصاد بالعبادات المالية الأخرى...

عندها أجابتني بطلاقة وكأنها تقرأ من كتاب مفتوح أمامها، «أنت تقصد بالعبادات المالية الأخرى الزكاة والصدقة على سبيل المثال»، اومأت لها برأسي موافقاً ولكنها أضافت قبل أن أتكلم أنا

«والأحب إلى قلبي كعبادة مالية هو الوقف»
لم أستطع أن أخفي دهشتي بما قالته، إذ لم أكن قد أدركت من قبل بأنها مهتمة بالوقف ودراسته، أثار ذلك فضولي ووجدتني أسألها عن السبب.
حينها قالت إن الزكاة هي فرض فرضه الله عز وجل على عباده أي أنه

واقع لدى المسلمين بلا جدال أو نقاش، أما الصدقة فهي اختيارية وهي إن حدثت ورغم تأثيرها الجميل والطيب فإن هذا التأثير لحظي ومن المؤكد أن تأثيرها سيزول بعد فترة من الزمن طالت هذه الفترة أو قصرت
قلت لها وقد سرني حديثها: «ماذا عن الوقف؟»
عندها عدلت من جلستها وقالت بنظرات ساهمة وكأنها تتحدث عن حلم يراودها
الوقف هو قمة العطاء لأنه عطاء يدوم تأثيره على المدى البعيد... البعيد جداً...

لا شك أنك تعرف أن هناك أوقافاً ما زالت قائمة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين... وكما هو قمة العطاء، فإنه كذلك قمة الأجر...

تخيل أن عثمان بن عفان رضي الله عنه ظل يؤجر عن كل غرفة من الماء تخرج من بئر رومة حتى يومنا هذا!
أي عطاء وأي أجر؟!

ثم انتبهت من شرودها وأكملت حديثها وهي تنظر إلي مبتسمة
«ثم إن الوقف كعبادة مالية له آثاره الاقتصادية الواضحة في الإسلام كما كنت تقول قبل قليل

فهو يحد من التوسع في الثروات الخاصة ويوجه المال الفائض إلى مصارف الخير المتنوعة والمشاريع التي تراعي الصالح العام والمساواة، وتؤدي إلى التطور الاجتماعي والاقتصادي للمجتمع بشكل عام
كنت أعرف كل ما تقوله ولكن طريقة حديثها عنه أعجبتني، سرني أن تكون زوجتي على هذا القدر من العلم والوعي، وعندما ظننت أنها أنهت حديثها فاجأتني بقولها:

«هل تعرف أنني مولعة بالأوقاف منذ صغري؟ هذا ما ربانا عليه أبي رحمه الله، كثيراً ما كان يجعلنا نجمع مالاً من مصروفنا الشخصي لنوقفه في وجه من وجوه الخير
مرة بشراء مصاحف يوقفها لمسجد الحي

وأخرى بشراء فسيلة لشجرة مثمرة نزرعها على طريق عام قد ينتفع من ثمرها يوماً ما عابر سبيل أو محتاج أو فقير
ومرة لصنع مظلة إلى جانب بيتنا يستظل بها المارون من حر الشمس وأشياء أخرى أيضاً

حتى إنني أحلم أن أستطيع أو أوقف مبلغاً كبيراً من المال أو أن أدير مؤسسة وقفية رائدة، تخيل إدارة وقف تعليمي أو تربوي، كم ستكون تجربة رائعة وكم سيكون أجرها عظيماً»

قالت كلامها ذاك ثم حملت بعض الكتب التي ستستعين بها لمساندتي في عملية البحث... وخرجت لتتركني لذهولي ودهشتي بكل ما قالته، لا لشيء إلا لأنني لم أتوقع ان أسمعه منها، ولا أدري لماذا؟

عندما حصلت على الدكتوراه وتم تعييني كأستاذ مدرس لمادة الاقتصاد الإسلامي في كلية العلوم الاقتصادية في جامعة أم القرى كانت مريم في غاية السعادة والفخر...
والقلق أيضاً...

كان قد مر على زواجنا أكثر من عام دون أن يحدث ما ينتظره أي زوجين في مقتبل زواجهما...
بعد عام كامل لم يحدث أن حملت مريم... كنت أعرف أنها في غاية القلق والخوف ولكنها لم تظهر لي ذلك يوماً...

وعندما كنت أحاول أن أناقش الموضوع معها كانت تبتسم وترد دائماً «الدكتوراه أولاً» وبعدها سنلتفت إلى بقية أمور حياتنا...
بعد الدكتوراه زرنا أكثر من عيادة داخل المملكة وخارجها... التحاليل تشير إلى أن مريم لديها مشكلة... لم أستطع التفريط بها، توسلت للأطباء ومخابر التحاليل ليقولوا إن المشكلة مزدوجة أي إنها لدى كلينا
ولكن فكرتي أصابت بعض المرات وأخفقت مرات أخرى...

واجهت مريم الأمر بشجاعة كانت حياتنا تسير بشكل طبيعي رغم الانتقادات والتلميحات التي تصل إلى مسامعها من هنا أو هناك خصوصاً من أمي وأخواتي، رغم تنبيهي لهن بعدم التطرق إلى هذا الأمر

ولكنها لم تستفز يوماً أو ترد على أي تعليق يوجه لنا، ردها الوحيد كان: «ليس الأمر بيدنا... إنها مشيئة الله...»

ولكن ومع مرور الزمن بدأت أتعرف على مريم الأخرى... مريم المكسورة والحزينة، كنت أعرف أنها في نوبة اكتئاب عندما تتوقف عن الكلام أو تتشاغل بأي أمر يحتاج إلى الحركة أو القوة العضلية...

أحياناً كانت تستخدم أجهزة الرياضة الموجودة في البيت لغرض الحفاظ على اللياقة في التنفيس عما يعتمل داخلها من ضغط نفسي
وأحياناً أخرى تستغني عن خدمات الشغالات لتتولى أمر التنظيف والتعقيم في أرجاء البيت...

كانت تنقلب وتغير من عاداتها المرحة التي كانت تجعل من البيت جنة أتوق إلى العودة إليها...

○○○○○

خرجت من المسجد بعد أن أديت صلاة الجمعة في الحرم المكي كان علي أن أمشي قليلاً لأصل إلى المكان الذي ركنت فيه سيارتي...
كان محيط الحرم مكتظاً بالناس ولكنني كنت أشعر بأن عيني تملكان راداراً خاصاً يلتقط صور الأطفال فقط...

أطفال من جميع الجنسيات والأشكال والألوان، بعضهم يرتدون ملابس الإحرام ويرافقون ذويهم لأداء مناسك العمرة.
«سبحانك يا رب ما أجمل وأبدع خلقك» قلت لنفسي ودعوت الله أن يجبر بخاطري وخاطر زوجتي بطفل يملأ علينا حياتنا...

قطع شرودي ارتجاج هاتفي النقال في جيبي... كان اتصالاً من مريم... صليت في سري أن تكون قد عادت إلى طبيعتها
ولكنها ذكرتني باقتضاب بأن أمي وأختي ستزورانا الليلة، وطلبت مني أن أحضر معي بعض الفاكهة والحلويات لزوم الضيافة...

كان صوتها ما يزال مجروحاً ببحة الصمت.. كاد قلبي يتقطع حزناً عليها...
في الأيام الأولى لزواجنا كانت تقول لي أحب أن يكون لنا ولد وبنت... محمد وعائشة، وهل هناك أجمل من هذا الثنائي في التاريخ؟

أما أنا فقلت لها مرة بأنني أريد أربعة أولاد أسميهم على أسماء الخلفاء الراشدين، عبدالله (أبو بكر) وعمر وعثمان وعلي، ثم أكملت وأنا أبتسم يعني أربعة «ع» (للدلالة على أنهم ستكون أسماؤهم جميعاً تبدأ بحرف العين)..

قوست مريم حاجبيها وهي تنظر إلي باستنكار لطيف بينما تابعت أنا وأربع بنات أسميهن على أسماء بنات الرسول صلى الله عليه وسلم: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة...

قالت لي يومها مازحة «إذن عليك أن تتزوج بأخرى فأنا لا أظن أنني أستطيع أن أنجب عشرة أولاد»
«إنهم ثمانية « قلت معترضاً
«هل نسيت محمد وعائشة؟»
قالت بابتسامتها الجميلة التي رأيت الشمس تشرق من خلالها في ذلك اليوم الجميل...

لكن هذا الحوار ظل عالقاً في عقلينا فترة أكثر مما توقعت...
ذلك الحوار الذي كان من المفترض أن تنتهي صلاحيته بتحقيق كل ما أردناه أو جزء منه على الأقل!

عُشْرُ ما تمنيناه وطلبناه في هذا الحوار كان كافياً لينسى كل منا ما ورد فيه! ولكن مشيئة الله كانت فوق ما أردنا..
ظل الحوار عالقاً على قمة الحلم، في مكان نستطيع أن نراه ونسمعه فيه كل يوم، وكان مزوداً بجسم مدبب يلكأ به جراحنا كلما نظرنا إلى تلك القمة...

جراحاً تروي قصة عشرة أطفال لم يولد منهم أي واحد...

مـريـــــــم (١)

منذ الصباح وأنا أقوم بدور نازيفا... أحاول أن أتقمص دورها من الجيد أن نضع أنفسنا مكان هؤلاء المساكين بين الفينة والأخرى علنا نشعر بما يشعرون به من حيث التعب والإرهاق على الأقل أما الأمور الأخرى فلن يستطيع أحد أن يشعر بها مثلهم، كما يقول الشاعر: لا يؤلم الجرح إلا من به ألم

كيف يستطيعون تحمل كل ذلك؟ ... غربة وعمل متواصل طوال الليل والنهار من أجل تأمين لقمة العيش، وتأمين قوت أهلهم هناك في البلدان البعيدة التي جاؤوا منها

أفلا نحمد الله على نعمة الوطن والكفاف؟

قالت لي نازيفا ذات مرة إنها متزوجة ولديها طفلان، ولكنها مضطرة لتركهما بعيداً عنها هناك خلف الآفاق ورؤيتهم خلال الإجازة السنوية فقط

هذا ما يسمح به الظرف بالنسبة لها ولأمثالها

أنظر إليهم وأنظر إلينا، أفكر ما الذي يميزني عن نازيفا؟ أو ما الذي

يميزها عني؟
كلتانا نتألم بصمت ونضطر إلى كتم ذلك بداخلنا لسبب بسيط هو لا خيارات أمامنا
وإن وجدت هذه الخيارات فإنها ستكون مؤلمة أيضاً

لم أتوقع يوماً أن أندم على مزحة قلتها ولم ألقِ لها بالاً في حينها...
قلت له ذات مرة: عليك أن تتزوج بأخرى لأنني لا أستطيع إنجاب عشرة أولاد!

يا لغبائي!
كيف به الآن وأنا التي لم أنجب له ولا حتى طفلاً واحداً... بل إن بطني لم تكبر ولو حتى بحمل الكاذب... أو حمل خارج الرحم...
الخوف ينهش أحشائي... قلبي يحدثني بأنه لن يتخلى عني... ولكن عقلي يقول غير ذلك

المشكلة أنني لا أتخيل نفسي من دونه... إنه زوجي الذي لم أرَ منه ما يزعجني حتى هذه اللحظة... متعلم ونبيل وشهم وكريم...
والأهم من ذلك ذو خلق ودين، ماذا تريد المرأة منا أكثر من ذلك، حتى إنه حاول في بعض المرات أن يوهمني بأن مشكلة العقم متعلقة بنا نحن الاثنين حتى لا يكسرني...

لم يكن من السهل أن يفلح ذلك معي بالتأكيد... ولكن حركته تلك جعلته يكبر في عيني أكثر فأكثر...
لا أعرف أي رضاً وتوفيق من الله عز وجل ساق هذا الرجل إلي ليكون زوجي... شعرت بذلك منذ اللحظة الأولى التي جاء فيها مع أهله لخطبتي.

أدركت منذ الحظة التي أشاح فيها بنظره عني عندما دخلت الغرفة التي يجلس فيها مع أهله أنه الرجل المناسب

لا أدري إن كان قد فعل ذلك خجلاً أو خشية الوقوع في الحرام ولكنه في كلا الحالتين تصرف يدل على أنه رجل حقيقي من الممكن الوثوق به... من الناحية النظرية على الأقل

فإن كان قد حرف نظره عني خجلاً فذلك يعني أنه ليس له أي تجارب مع النساء ولا يملك ذلك السلوك الوقح معهن
ومن قال إن خجل الرجل غير مقبول في بعض المواقف إنه دليل على عفته وحفظه لنفسه وهنيئاً لمن تحظى به

وإن كان قد أشاح بعينيه عني خشية الوقوع في الحرام فهذا دليل على التقى وخشية الله، ومن يخشى الله لا يُخشى ظلمه لأن الله يكون دائماً نصب عينيه، فطوبي لمن تظفر به
عندما سألته مرة إن كان يريد الزواج بغيري ابتسم وقال لي: أنت نعمة أنعمها الله علي، أفترد نعم الله؟

يومها غمرتني السعادة لوهلة ومنعني الحياء من الرد فقلت في نفسي: بل أنت النعمة التي لن أستطيع لله شكراً بأن وهبني إياها
ثم فكرت: الزواج بأخرى لا يعني أن يتخلى عني... سأبقى زوجته ويتزوج بأخرى، مع ذلك كان ذلك أهون علي من أن يتخلى عني نهائياً،

بدت لي فكرة أن تشاركني امرأة أخرى به مجنونة بعض الشيء، ولكن في النهاية من حقه أن يحظى بولد
قلت محاولة أن أستدرجه لأعلم ما يدور في خلده: ولكن هذا حقك... من حقك أن تحظى بولد يحمل اسمك...

فقال: وأنا تخليت عن هذا الحق وهذه ليست جريمة ولا مخالفة شرعية! أفضل أن أدعو الله ليلاً ونهاراً حتى يرزقنا أنا وأنت بطفل، بدونك ستكون سعادتي ناقصة
عدت لأسبح في سعادتي وخجلي...

فكرت كثيراً في أن نكفل طفلاً يتيماً... وأردت ذلك بشدة... توسلت لمشعل أن يقبل... قبل بفكرة الكفالة حتى إنه كفل عدة أيتام، ولكنه رفض فكرة أن يعيش اليتيم المكفول بيننا رفضاً قاطعاً...

○○○○○

الليلة ستكون حافلة... زيارة أمه وأخته ستكون بمثابة سكب الزيت على النار...

وبعد يومين سيكون الموعد مع الطبيبة القادمة حديثاً من ألمانيا لنعيد ذات الأسطوانة التي يرددها جميع الأطباء منذ نحو عشر سنوات... نسبة الحمل لدي ضعيفة ولا تتجاوز الاثنين بالمئة

ما حاجتنا للذهاب إلى هذه الطبيبة حتى لو كانت متخرجة من المريخ! ألم نذهب حتى ألمانيا ذاتها؟ ألم يكن الجواب واحداً في كل مكان نذهب إليه؟

أفكر في أن أطلب من مشعل عدم الذهاب إلى الموعد مع الطبيبة... أريد ذلك حقاً... ولكنني أخشى أن يظن بأنني قد يئست، وأخجل من الله أن أكون قد قصرت في الأخذ بالأسباب بينما أدعوه في كل ليلة أن يحقق حلمي بأن يهبني طفلاً تكون فيه سعادتي وسعادة زوجي

نعم... أعترف أنني أعيش هذا التخبط والتناقض بين شخصيتي كأنثى

بشرية مجردة تسيطر عليها عواطفها أحياناً... بل معظم الأحيان، وبين شخصيتي الأخرى كأنثى متعلمة ومتخرجة من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية وتعرف تماماً بأن الأمر كله بيد الله عز وجل وأننا كبشر ليس لنا من الأمر شيء!

وكنت أعرف أنني أعيش هذا التناقض لأنني في النهاية بشر...
أحياناً كنت أفكر من الأمر من زاوية أخرى... نعم أنا بشرية، ومن حولي أيضاً ليسوا ملائكة! هم بشر مثلي!...

ومن المجحف ألا أعترف أن مشعل لا يصغي إلى تلميحات أهله ولكن مع ذلك الأمر بات مزعجاً... ثم إن المسمار يدخل الحائط من كثرة الطرقات التي يتلقاها على رأسه...

ولربما ينصت ذات مرة إلى كل ذلك، أليس هو بشر أيضاً؟
ومن غير العادل أيضاً ألا أعترف بأن عمتي (أم مشعل) وأخته مشاعل يحترمانني للغاية ولا يوجهان كلاماً مباشراً إلي وتحاولان جاهدتين ألا تتحدثا في الأمر في وجودي...

ولكنني ازداد حساسية يوماً بعد آخر... حتى يخيل إلي أنهم يتهامسون ويتغامزون علي... لم لا؟! أليسوا بشراً أيضا؟!

ومن قلة الوفاء ألا أذكر أن مشعل لم يترك مكاناً يجد فيه بصيص أمل في معالجتي إلا وأخذني إليه... دون تردد... ولكن أليس من الممكن أن ييأس هو أيضاً؟ أليس بشراً أيضاً؟

هو بشر... بل هو بشر مفرط في الإنسانية، حتى إنني أشعر بأن الأطفال هم نقطة ضعفه...

أرى كيف ينظر إلى أطفال أخواته وكيف يغدق عليهم الهدايا والعطايا، كيف انه لا يترك أسبوعاً دون أن يمر بهن ليطمئن عليهن وليحظى بفرصة ممارسة شعور الأبوة هناك مع أطفال ينادونه خالي ويتمنى لو أنه يسمع بدلاً منها كلمة بابا...

تلك العيون الحانية وذلك القلب الرقيق لا يمكن إلا أن يكون متعطشاً لطفل يكون من صلبه... ذكراً كان أم أنثى... ويحلم أن يربيه تربية صالحة... وأن ينشئه كما نشأ هو... كيف لا؟ أليس بشراً؟
ولكنني تصالحت مع كل هذا...

تصالحت مع حساسيتي المفرطة تجاه هذا الأمر، واعتدت الشعور بأن الحوامل من قريباتي ومعارفي يختبئن عن ناظري وأن الوالدات منهن يخفين أطفالهن عني خوفاً عليهم من الحسد الذي قد أضمره لهن، أو عيني التي قد تصيبهن...

حتى إنني تصالحت مع شعوري بالحزن عندما أمر بكل هذا... في النهاية كلنا بشر
وبت ألجأ في لحظات ضعفي هذه إلى الاستغفار وذكر الله لأطرد الشيطان

وحده الله عز وجل هو القادر على انتشالي من أوحال ذاتي البشرية ويعيد إلي توازني... ويحافظ على ذلك الصلح الذي عقدته مع كل ما يحيط

كان ذلك الصلح ما يزال قائماً حتى فجر اليوم
كنت قد صليت ومشعل الفجر جماعة... وبينما كنا نقرأ القرآن ريثما يحين موعد صلاة الضحى غفوت... وأثناء غفوتي عاودني ذلك الحلم الغريب مرة أخرى...

كنت قد بدأت برؤيته قبل أيام... ولكنه كان هذه المرة أكثر وضوحاً من أي مرة أخرى
استيقظت من غفوتي دون أن أعرف إن كان هذا الحلم مريحاً أم مزعجاً
كنت كمن يضحك ويبكي في آن معاً
هل بدأت أتجه نحو الجنون؟
يا رب ثبتني وألهمني الصواب يا أرحم الراحمين

وفـــــــــاء (١)

الدرعية: 1220 هجري/ 1805 ميلادي

قلبي يخفق بشدة... أشعر بأن رئتي قد فقدتا القدرة على التعامل مع الهواء المحيط فأتخبط في منزلي كسمكة أُخرجت للتو من مائها الآمن...

رغم أنها ليست المرة الأولى التي يسافر فيها بغرض التجارة... ولكنها المرة الأولى التي يغيب فيها كل هذه المدة، وأنا الآن أكاد أفقد ما تبقى في رأسي من وعي...

أعتلي سطح المنزل وسط الظلام الدامس لأراقب الأفق البعيد... بينما ينهش الخوف أحشائي، علّني أرى هناك طليعة لقافلة تحمل معها سعداً، أو على الأقل خبراً منه، فيقابلني الظلام بوجهه الجامد ليزيد من نيران قلبي اضطراماً...

كيف لا يخفق قلبي وجزء منه مفقود؟ ... سامحك الله يا سعد، كيف تتركنا أنا وطفلك هكذا دون أي خبر؟
آه يا سعد... تخنقني العبرات ويكاد القلق يقتلني... أين أنت؟! أي مصيبة ستحل بي إن لم تعد...

تخذلني قدماي فأسقط على الأرض بينما يصم هدوء الليل أذني... أحبو على ركبتي إلى زاوية السطح بعيداً عن الأعين التي قد تكون على الأسطح تراقب الأفق أيضاً هي الأخرى..

أغمض عيني اللتين استحالتا إلى جمرتين ملتمسة بعض الراحة... متوسلةً خاطراً ما يهدئ من روعي... أو أغفو فيزورني طيف سعد في الحلم...

تقودني ذاكرتي إلى اليوم الذي خطبني فيه سعد... لم أكن يوماً أحلم برجل مثله، أي قدر ساقه إلي يومها؟ وأي سعادة غمرتني؟ قد لا تسعفني الكلمات لأصف ذلك... المهم أنه حصل... ولكن الأهم هو أن يستمر

جاء لينتشلني من براثن اليتم والقهر... من بيت عمي الذي تربيت فيه يتيمة الأب والأم، لأكون تحت رحمة زوجته، هذا إن افترضنا أنها كانت تملك ذرة من الرحمة، حتى هذه اللحظة أشك في ذلك

لا أذكر بالضبط متى فقدت والدي، قيل لي إنني كنت في الثالثة عندما كفلني عمي بعد أن مات والداي بالحمى...

كان عمي تاجراً معروفاً وموسعاً من تجار جدة الكبار، ولكن ذلك لم يغير من كوني البنت اليتيمة الدخيلة على عائلة زوجة عمي، الحب والحنان الذي كان يغمرني بهما عمي أثناء وجوده في البيت وكان ذلك قليلاً جداً، كانت زوجته تكيل لي بدلاً منه أضعافاً مضاعفة من الإهانات والإذلال عندما يكون غائباً عن البيت وكان ذلك كثيراً جداً...

ولا أذكر أنني نمت ليلة دون دموع تسيل على وجنتي، تمنيت الموت أكثر من مرة... حتى الآن لا أستطيع أن أفهم كيف تحملت وجودي معها لنحو عشرين عاماً، عشرون عاماً وأنا أتحمل كل أنواع المهانة دون أن

أستطيع أن أشتكي أو أدافع عن نفسي.

كثيراً ما كان عمي يعود ليجدني منعزلة في إحدى زوايا البيت أبكي... ورغم أنني لم أخبره يوماً بأنني ألقى ما ألقاه على يد زوجته إلا أنه كان يفهم سبب حزني...
سمعت أكثر من مرة أصوات خلافه مع زوجته لأجلي... ولكن عبثاً يحاول، بل كانت في كل مرة يختلفان فيها من أجلي تزيدني من القهر والعذاب جرعة مضاعفة تنفيساً عن غضبها... حتى صرت أتمنى أن لا يختلفا لأجلي أبداً، فقد كنت أعرف النتيجة سلفاً...

في ليلة من ليالي الصيف نزل سعد عند عمي... كانا صديقين وكان سعد قد قدم من الدرعية إلى جدة بغرض التجارة، وكانت تجارته موفقة جداً يومها وربح منها مبلغاً معقولاً...
كنت منعزلة في ركني المخصص لي في تلك الليلة أستمتع بإجازتي بعيداً عن أهوال زوجة عمي بسبب وجوده في البيت، جاء عمي إلي وجلس بالقرب مني، كان وجهه يشع بالبهجة وهو ينظر إلي مبتسماً...

قال لي إنه اختار لي عريساً من أصدقائه... شاب في مقتبل العمر... رجل ذا خلق ودين، لا تنقصه الشهامة ولا تعوزه الرجولة...
كان عمي يعدد صفات سعد الكثيرة أمامي وكأنه يحاول أن يقنعني به... أما أنا فكنت قد وافقت منذ أن قال لي إنه ذا خلق ودين...

ما زلت أضحك في سري كلما تذكرت ذلك الموقف، يحاول أن يقنعني؟!! كنت سأقبل بعرض أقل من هذا بكثير في سبيل الخروج من جحيم زوجة عمي...

كان لعمي بنات في سن الزواج، وكان يستطيع أن يزوج أياً منهن لسعد، ولكنني أظن أنه أراد لي ولنفسه الخلاص من جحيم زوجته المتعلق بي

ثم خطر لي خاطر آخر! ربما كان عمي يعرف أن حظ بناته بالزواج كبير وهن بنات تاجر جدة الكبير والمعروف، بالمقارنة مع حظ فتاة يتيمة مثلي...
ربما فكر في الأمر على هذا النحو أيضاً! خصوصاً وأنني عرفت لاحقاً أن عمي هو من عرض على سعد الزواج بي وليس العكس، يومها تحدث سعد عن عزمه على الزواج أمامه، فكنت أنا أول من خطر في باله
أخبرت عمي بموافقتي على الفور ودون أي نوع من المماطلة أو التردد، وأخبرني هو بأنه سيطلب من سعد أن يحضر أهله ويأتي لخطبتي بشكل رسمي...
منذ اليوم الأول لظهور سعد في حياتي تغير كل شيء... كان قدومه فأل خير علي.. خير بدأت ألمس نتائجه بشكل آني ودون أي تأخير...

عندما سمعت زوجة عمي أنني سأخطب لأحد تجار الدرعية، انقلبت معاملتها لي رأساً على عقب، انقلبت الإهانات إلى دلال لم أشهد مثله منها في حياتي، أصبحت الابنة التي لم تلدها فجأة، وللمرة الأولى رأيت دموعها بعد أن تحدد موعد الزفاف... كنت سعيدة برؤيتها تبكي حتى وإن كانت كاذبة، للمرة الأولى شعرت بأنني انتصرت...

○○○○○

أعادت ذكرياتي الأولى مع سعد لي القوة، شعرت بالروح تدب في أوصالي من جديد.... استعدت ما فقدته من إحساس بقدمي ونهضت واقفة أسند خصري بيدي اليمنى لتساعدني في حمل أحشائي التي تحوي ابننا... ابننا الذي لطالما انتظره سعد بفارغ الصبر

كان الهدوء يعم المكان، لا شيء سوى صوت صراصير الليل، ونباح كلاب قادم من البعيد، شعرت بالقشعريرة للحظة، وتوجست في نفسي فقررت أن أعود إلى مخدعي أتضرع لله أن يحفظ لي سعداً...

هممت بالنزول على السلم الخشبي، كانت مخاطرة كبيرة، لو رآني سعد على هذه الحال لأقام الدنيا فوق رأسي...
مع وصولي إلى الأرض تناهى إلى سمعي أصوات رصاص قادم من بعيد... لا بد أن هناك عرساً في مكانٍ ما!

لا أدري لماذا أصابني صوت البنادق والرصاص بالسكينة هذه المرة، صوت الرصاص الذي كان أول عهدي بالأفراح... كان أول ما خطر ببالي هو صوت الرصاص الذي كان يملأ سماء الدرعية يوم زفافنا أنا وسعد، كنت أفكر يومها أن الله قد كافأني على صبري كل تلك السنين...
في اليوم الذي جاء ليصحبني فيه إلى الدرعية غادرت للمرة الأولى في حياتي أسوار مدينة جدة... خرجنا من باب مكة ومن هناك ألقيت النظرة الأخيرة على المدينة

كنت كالمارد الذي خرج من مصباحه إلى الأبد... نعم... كانت جدة هي ذلك القمقم الذي سجنت فيه لمدة بالنسبة لي كانت أشبه بألف عام
خارج جدة رأيت عالماً آخر... غير العالم الذي كنت أراه في المدينة!

بعد خروجنا بدقائق وجدنا أنفسنا مباشرة أمام مدينة أخرى عبارة عن تجمع لأكواخ من القش وجريد النخل تنتشر على حدود المدينة استطعت أن أعرف من خلال ملامح بعض السكان أنها تضم أسر العمال القادمين من خارج أرض الحجاز للعمل في ميناء المدينة...

وفي طريقنا مررنا بمكة المكرمة وصلينا في الحرم وأدينا العمرة، وقال لي سعد يومها ليكن أول عهدنا مع بعضنا صلاة في الحرم المكي وعمرة لوجه الله تعالى...
عندما أنهيت عمرتي، تحللت بقص شعرات من تحت الخمار...
شعرت يومها بأنني أتحلل من ماض لا أريد تذكره أو العودة إليه... أزحت عن كاهلي حملاً كبيراً كان قد تراكم على مر السنوات الماضية
وتسللت الطمأنينة إلى قلبي بعد سنوات كان الخوف والذل فيها هما

فراشي ودثاري... سنوات لم أذق خلالها طعم الأمن، ولم أتعرف على مشاعر الحنان والمودة والرحمة...

كان وصف عمي لسعد دقيقاً على الأقل حتى تلك اللحظة...

عندما دخلت بيته للمرة الأولى لم أشعر أنه بيت تاجر، كان البيت بسيطاً جداً، ولا يمكن أن يقارن ببيت عمي

ومع ذلك كنت أشعر أنني ملكة هذا البيت، للمرة الأولى أختبر شعوراً كهذا، أن أكون سيدة البيت! لا أتلقى الأوامر من أحد، ولا أتلقى الإهانات على تقصيري، وإن تلقيتها ذات مرة فأنا أتلقاها من زوجي، ليس من أي أحد آخر...

كان يغيب كثيراً عن البيت، أحياناً للعمل والتجارة، وأحياناً أخرى كان يخرج دون أن يقول وجهته، بشكل عام كان سعد قليل الكلام، هادئ وقلما يغضب كنت أرى في عينيه إصراراً لم ارَ مثيلاً له... ووجدت في قلبه مستقبلاً ووطناً...

سألته ذات مرة عن أحب الأشياء إلى قلبه... كانت تلك مراوغة مني حتى أسمع منه ما يسرني

ولكنه أجاب دون تردد، الدين والوطن

رغم أن جوابه خيب أملي إلا أنني لمحت في عينيه رجولة جعلتني أفتخر بأن هذا الرجل الأسمر ذو العضلات المفتولة واللحية الفاحمة الكثة هو زوجي... رجل حقيقي أستند إليه عند الشدائد وأعرف أنه لن يظلمني يوماً... وأنه سيدافع عني حتى آخر رمق فيه...

ومع كل ذلك كان لا يزال هناك أمر واحد فقط لم أستطع أن أفهمه أو أجد له تفسيراً!

من الواضح أن سعداً كان تاجراً ماهراً، وأنه كان يكسب مقداراً لا بأس به من المال... إلا أنني لم أجد عنده يوماً ما يدل على سعة الرزق رغم أنه لم يكن ينقصني أي شيء، ولكن بيته لم يكن بيت تاجر غني أبداً

كان ذلك الأمر شرارة أشعلت نيران شكي....

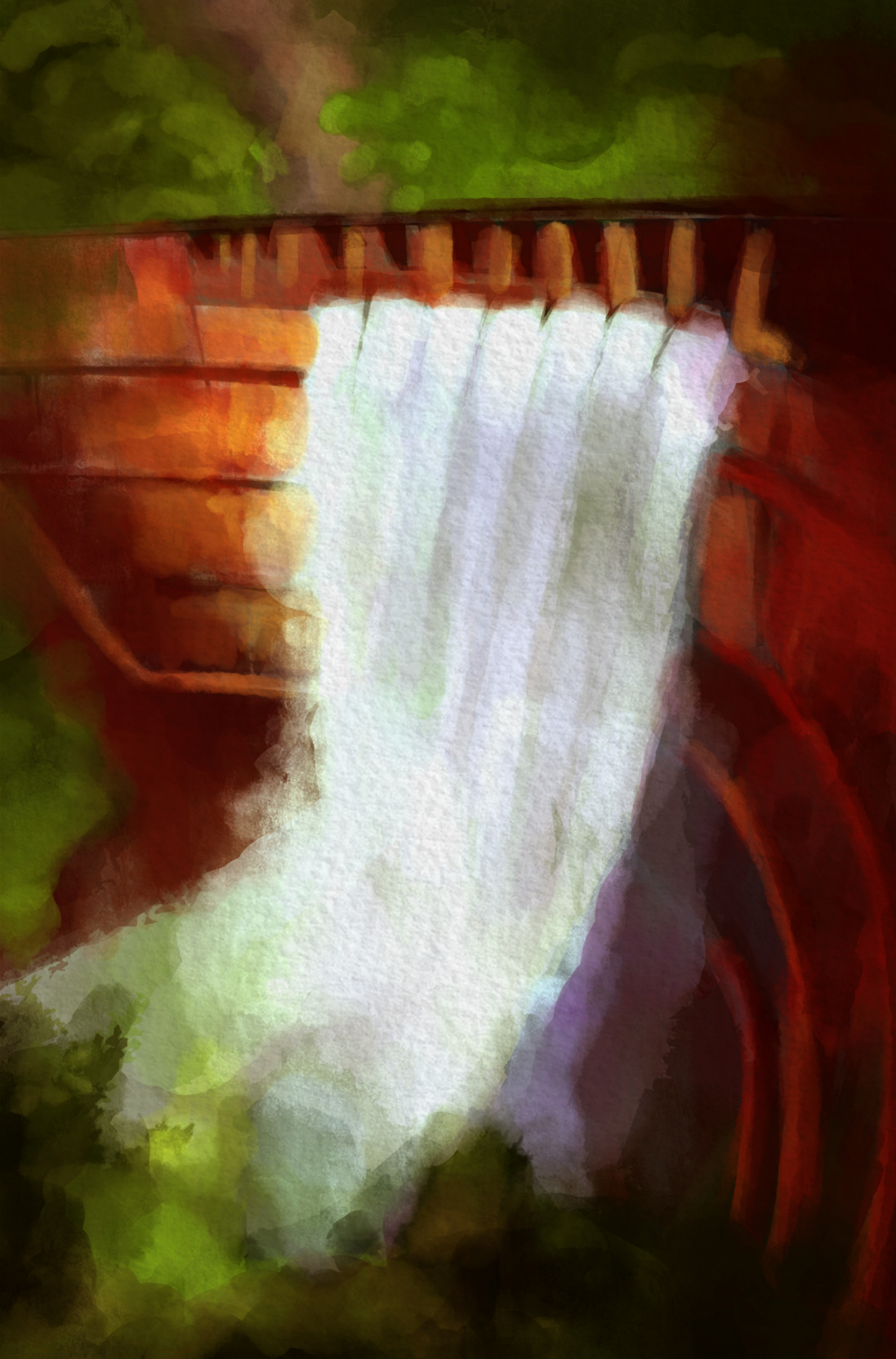

مشـــــــعل (٢)

نعم... أنا لست ملاكاً بالتأكيد... أنا مجرد بشر... مجرد ب ش ر
وأقر أنني لست مثالياً إلى تلك الدرجة...

أنا كغيري من الرجال أريد أن أحظى بولد
وأعترف بأنني واجهت لحظات من الضعف في أحيان كثيرة، وفكرت فيها بالزواج من أخرى لأن هذا من حقي، وليس فيه أي مخالفة شرعية على العكس تماماً،

وأعترف بأنني أصبحت أسأم في الفترة الأخير من تصرفاتها وردود أفعالها نحوي، رغم أنه لا يد لي فيما يحدث، وعلى العكس تماماً كنت دائماً داعماً لها في الوقت الذي كنت أحياناً لا أجد من يقف إلى جانبي ولو حتى بكلمة واحدة،

المشكلة أن الكل ينسى أنني أيضاً متضرر من هذه الحال
سئمت حياتنا المضطربة الغارقة بالدموع والأحزان
حتى إنني قررت أكثر من مرة أيضاً أن أتزوج وكنت أتراجع في اللحظة الأخيرة

كنت أنظر في المرآة وأتخيل نفسي مكانها! وأشعر بانفطار القلب...
كيف لي أن أفطر قلب هذه المرأة التي ساندتني ووقفت إلى جانبي معظم الوقت... هل من العدل ان أتخلى عنها في لحظات ضعفها؟!

فكرة التبني أو الكفالة المنزلية كانت مرفوضة بالنسبة لي تماماً إنها تماماً كمسكن للألم، ولكنها ليست العلاج أبداً...
إنه شعور لذيذ مؤقت... يشعر به كل من الأسرة الكافلة والطفل المكفول...

ولكن في يوم من الأيام سيبلغ هذا الطفل الحلم وسيضطر الأبوان أن يخبراه بأنهما ليسا والديه... وأن والداه ربما توفيا أو تفرقا ولم يعد أي منهما إليه

إنها مشكلة خطيرة ستفطر قلب الطفل وقلبنا معه ايضاً،
كيف نربي شخصاً سوياً ويعيش معنا كل تفاصيل حياته على أننا والداه ثم وبلحظة ما سنخبره بأنه أجنبي وإنه لن يستطيع العيش في منزل من اعتبرهم ذويه لفترة طويلة؟

لم أحبذ هذا الخيار أبداً... كنت مستعداً لكفالة أي طفل يتيم في مكان إقامته هو دون ان يقيم معنا فنتعلق به ويتعلق بنا ثم نتحطم جميعاً في يوم واحد...

حتى إنني ومريم كانت لدينا أمنية مشتركة في إدارة مركز لرعاية الأيتام... هناك سنمارس ما نفتقده من مشاعر الأمومة والأبوة على جميع الأطفال ودون أن نفطر قلوبنا أو قلوبهم يوماً...

عندما عدت إلى المنزل كانت نازيفا في استقبالي على الباب لتأخذ مني ما كنت أحمل من أغراض... سألتها عن مريم... فقالت إنها تركت المطبخ قبل فترة وجيزة وصعدت إلى غرفتها
الحمد لله تركت المطبخ أي أنها تخلصت من التوتر

تأملت في ذلك خيراً... لعلها وجدت ما يسليها عما يشغل بالها... لحقت بها فوجدتها ساجدة بين الله عز وجل وغرفت أنها عرفت كيف تنتشل نفسها مما هي فيه

إنها إشارة جيدة أنني سيكون بوسعي أن أحدثها بعد الصلاة مباشرة...
رن هاتفي معلناً وصول رسالة نصية... كان المرسل هو ناصر أحد طلاب السنة الثانية، وكان يسألني عن البحث الذي أرسله إلى بريدي الإلكتروني قبل أيام وكنت قد وعدته أن أراجعه خلال عطلة الأسبوع وطلبت منه أن يذكرني حتى لا أنسى

اتجهت إلى المكتب لأطالع البحث على حاسوبي المحمول، هذه المرة كان بحثه عن الوقف وتأثيره على الاقتصاد
ولاحظت بنظرة سريعة أنه قد لون بعض الأماكن باللون الأحمر وترك تعليقات وتساؤلات عندها لأجيبه عليها...

قلما أعطي رقم هاتفي الشخصي لطلابي.. غير أن ناصر مختلف عن غيره، من خلال البحوث التي يطلعني عليها باستمرار لمست فيه نزعة لتطوير البحث العلمي إلى مستويات جديدة وكان مهتماً بشكل خاص بالاقتصاد الإسلامي، إنه شاب حاد الذكاء ودائم الحركة وفي غاية الأدب والتهذيب

مع مرور الوقت وكثرة النقاشات بيني وبينه، أحببته واستشعرت فيه ظهور مفكر جديد سيكون له شأن عظيم في المستقبل، وأخذت على عاتقي دعمه ومساعدته

حتى إنني بت أفكر بأنني وجدت فيه الولد الذي حرمت منه، كان بنفس مواصفات ولدي الذي تمنيت لو أنني انجبته، رغم أنه أكبر من أن يكون ابناً، مع ذلك تمنيت لو أنه كان كذلك...

في أحد النقاشات بيننا سألني عن الرابط بين التنمية الاجتماعية والاقتصادية، ثم أضاف سؤالاً آخر قال فيه وأين يكون الوقف من كل هذا؟ ما هو دوره؟

أذكر أنني أجبته بأن التنمية الاجتماعية في المفهوم الإسلامي تعتمد بالدرجة الأولى على العنصر البشري لأنه ركيزة العملية التنموية وهدفها، وتحقيق التنمية البشرية يكون بتحقيق مقاصد الشريعة الخمس عند مستوى الكفاية اللائق بالإنسان الذي كرمه الله على العالمين

وقد أثبت الوقف على مر العصور، وبصرف النظر عن المستوى الاجتماعي والمعيشي للأفراد، وطبيعة الحكم السائد في كل عصر، قدرته على تحقيق مقاصد الشريعة للإنسان وهي حفظ الدين وحفظ النفس وحفظ النسل وحفظ العقل وحفظ المال...
عندها قال ناصر وقد ظهرت ابتسامة كبيرة على وجهه: نعم هذا صحيح قرأت مقالاً بهذا الخصوص

الأوقاف تضطلع بدور مهم في حفظ الدين: فالمساجد وبناء المدارس وصروح تعليم العلم الشرعي لبناء الشخصية المسلمة الوسطية بعيداً عن الخرافات والدجل والشعوذة ومعاهد تحفيظ القرآن الكريم، وهي مؤسسات منوط بها حفظ الدين، لوزارات الأوقاف والشؤون الإسلامية،

وفي باب حفظ النفس هناك العديد من الأمثلة على أوقاف خصص

ريعها لتوفير الحاجات الأساسية للإنسان من الطعام والشراب والكساء والإيواء في صورة تكايا وملاجئ ومستشفيات خيرية تقدم خدماتها للمحتاجين والمشردين بلا مقابل وفي ذلك كله صيانة لحياة الإنسان من الهلاك وبالتالي حفظ النفس...

وأضاف أن هذه المؤسسات بالإضافة إلى المدارس والجامعات والمكتبات الوقفية التي تقدمها خدماتها للفقراء بالمجان تساهم في التهذيب والتثقيف بالعلم والمعرفة وتحرير العقل من الجهل وبذلك تساهم الأوقاف في حفظ العقل الذي يعتبر المقصد الثالث من مقاصد الشريعة

أدهشني هذا الشاب يملك اطلاعاً واسعاً ورؤية ثاقبة شاملة... ليست المعلومات التي قدمها مغيبة أو غير معروفة إلا أن ما أدهشني هو اهتمامه بها وطريقة بحثه عنها ودرستها والسعي لنشرها وتعميمها...
ذكرني بالطريقة التي تفكر بها مريم تجاه الأوقاف والتي نبهتني من خلالها إلى باب واسع أثرى رسالة الدكتوراه التي حصلت عليها...
فكرت: أليس غريباً أن أكون محاطاً بأشخاص يؤمنون بأهمية الوقف مثلي تماماً، أم إننا في زمن أصبح فيه العودة لإحياء الأوقاف ضرورة ملحة وتجعله في دائرة الضوء لكل من يفكر في نشر الخير والنهوض بمجتمعاتنا والعودة بها إلى سابق عهدها كما كانت في عصور صدر الإسلام..

قلت له بدوري إن الأمر البديهي والمسلم به هو أن الوقف يحفظ المال... ليس ذلك فحسب بل إنه ينميه ويحفظه من الزوال والفناء أي أن الوقف هو مال محفوظ بلا شك... فكثير من الواقفين يخصص جزء من ريع الوقف لتنميته بشراء أعيان جديدة تضم إلى أصل الوقف، وكذلك تخصيص مبالغ لصيانة وإصلاح وترميم الوقف.

ثم أضفت: كما أنك نسيت مساهمات الأوقاف في تحقيق غرض حفظ النسل، من خلال مساعدة الفقراء وغير القادرين من الذكور والإناث على الزواج.

معك حق لقد نسيتها... قالها ناصر بخجل واضح ثم أضاف:
ولكنني لاحظت أيضاً أن الوقف الذي لم يتوقف على تحقيق حاجات الإنسان الضرورية بل تعداها ليغطي الحاجيات الأخرى التي من شأنها رفع المشقة والعناء والحرج عن الإنسان
فكثير من الأوقاف خصص ريعها للإنفاق على تمهيد الطرقات، وشق الترع، وبناء السدود، وإنشاء وتأثيث النزل لاستراحة المسافرين، والمضايف لاستقبال الغرباء.

«صحيح» قلت موافقاً على كلامه وأضفت:
حتى إن الوقف تجاوز تحقيق مختلف الضروريات والحاجيات الإنسانية، ليصل إلى الكماليات التي تجمل الحياة وتزينها , مثل الأوقاف التي خصص ريعها لإنشاء نوافير المياه في الأماكن العامة , وغرس الأشجار والأزهار والعناية بالآثار والفنون الجميلة , وأمتد نفعها ليشمل إطعام الطيور والكلاب وبعض الحيوانات , ليقدم صورة مشرقة تعبر عن حس مرهف لمشاعر أسلافنا , الذين فهموا الإسلام فهماً صحيحاً , فقدموه للعالم عملياً في أزهى صورة

وهنا قفز ناصر وكأنما وضعت يدي على المكان الذي يريد الاستفسار عنه وقال
هذا ما أريد الوصول إليه: كيف يؤثر الوقف في التنمية الاقتصادية؟!

ابتسمت لحماسه الذي يذكرني بنفسي عندما كنت طالباً وقلت :
الوقف عملية تجمع بين الادخار والاستثمار معاً، فهي اقتطاع أموال

عن الاستهلاك الآني وتحويلها إلى الاستثمار في أصول رأسمالية إنتاجية في المجتمع، الهدف منها إنتاج المنافع والخيرات والإيرادات التي تستهلك في المستقبل، سواء أكان هذا الاستهلاك بصورة جماعية أم بصورة فردية

قال ناصر محاولاً ان يظهر أنه فهم تقصد بالجماعية المسجد والمدرسة والمستشفى، وبالفردية ما يوزع على الفقراء والمساكين أو على الذرية

نماماً قلت قبل أن أتابع. فإنشاء وقف هو أشبه ما يكون بإنشاء مؤسسة اقتصادية ذات وجود دائم... الوقف يا ناصر عملية استثمار للمستقبل... وهو بناء للثروة الإنتاجية من أجل الأجيال القادمة
أمام تحقيق التنمية الاقتصادية من خلال الوقف يكون عن طريق تمويل التنمية لأن وجود الوقف كصدقة تطوعية على جانب الزكاة كصدقة إلزامية يسهم في تحرير رؤوس الأموال العينية والنقدية جبراً أو طوعاً من سيطرة حب أصحابها الفطري لها، ويجعلهم يدفعون بها للمشاركة في تنمية المجتمع طلباً للبركة والنماء والثواب من الله في الآخرة.

ومن ثم تنمية القطاعات الاقتصادية من خلال دعم الزرعة والصناعة والتجارية والخدمات

وأخيراً تأتي آثار الوقف التوزيعية فالوقف يوفر حد الكفاية لأكبر عدد ممكن من أفراد المجتمع بما يحقق درجة أعلى من التكافل الاجتماعي، فيحمي النفوس من الانحراف ويحمي من الاضطرابات وهما أهم عنصران لإعاقة التقدم الاقتصادي والإنماء.

شكرني ناصر بشدة على الشرح الوافي الذي قدمته له والغريب في

هذا الفتى أنه كان يمسك قلماً ويسجل كل ما أقوله بالحرف!!... ما شاء الله أي نشاط وهمة لديه؟
استغرقت في قراءة بحث ناصر... شدتني الأفكار التي أوردها فيه ونسيت نفسي في خضم ذلك كله...

رددت على بريد ناصر برسالة مدح وإطراء مستحق وارفقتها ببعض الملاحظات والنصائح، لم يكن الأمر متعلقاً بالأفكار الواردة في البحث بقدر ما كانت تتعلق بطريقة الصياغة وضرورة الانتباه إلى بعض الأخطاء اللغوية والإملائية الواردة فيه...

بعد قراءة الرسالة للتأكد منها قبل إرسالها لاحظت أن معظم جملي كانت تبدأ بكلمات من قبيل... ولدي، بني... كلمات كتبتها لا شعورياً ولكنني عندما قرأتها استشعرت صداها في أعماق روحي...

مريـــــــــم (٢)

ربما يكون ما رأيته في هذا الحلم المتكرر بشكل يومي منذ أسبوع مجرد أضغاث أحلام! ولكنه نبهني إلى مسألة خطيرة كان لا بد أن أنتبه إليها منذ زمن

لا بد من مواجهة الواقع بعد الآن... لا مزيد من القرارات الخاطئة
قررت بعد التفكير العميق أثناء عملي في تنظيف المطبخ أن أستخير الله عز وجل... صليت ركعتين ودعوت الله بكل ما أوتيت يقين

«اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب
اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاكتبه لي ويسره لي ثم بارك لي فيه
اللهم وإن كنت تعلمه أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فأبعده عني وأبعدني عنه و قد لي الخير حيث كان ورضني به يا رب العالمين»

سألتُ نازيفا إن كان مشعل قد عاد وأشارت لي بأنه في غرفة المكتب
دخلت الغرفة لأجده غارقاً في قراءة شيء ما على حاسوبه الشخصي...
لوهلة حسدته!
ربما يجد عزاءه من خلال العمل خارج المنزل... ليتني أستطع!

كان يبدو كأنه ينهي عمله... دون بعض الأشياء على عجل ونقر عدة نقرة
بواسطة الفأرة قبل أن يطبق جهاز الحاسوب ويلتفت نحوي مبتسماً

على الفور بادلته الابتسامة... كان من الضروري أن أبدو أنني عدت إلى
ماكنت عليه قبل الحلم الذي رأيته صباحاً

هم بالحديث ولكنني بادرته على الفور والابتسامة ما زالت مرتسمة على
وجهيي
سأطبخ بنفسي على العشاء اليوم... ولذلك فقد أرسلت رسالة إلى
عمتي ومشاعل طلبت منهما أن تكونا على استعداد لتناول العشاء عندنا
أثناء الزيارة...

«الوقت ضيق... لا داعي لأن تتعبي نفسك... نستطيع أن نطلب شيئاً
للعشاء» قال مشعل بينما كانت تعابير وجهه تقطر دهشة

قلت له معترضةً: «تعرف انني لا أحب أن آكل من خارج المنزل» وتابعت
سأطهو السليق والمبشور فهما الطبقان المفضلان لدى كل منهما
كدت أنسى الأمر الأهم في هذه المرحلة!

كنت أهم بالخروج من الغرفة تاركة مشعل على وشك أن يكلم نفسه من
أثر الصدمة عندما التفت إليه وقلت له: وسأطلب منك طلباً أخيراً! وأومأ
هو برأسه بكل ثقة ورحابة صدر

«طلب أخير؟» فكرت في نفسي! هل سأموت لا قدر الله... ما الذي يحدث لي؟ يبدو أنني في طريقي إلى الجنون فعلاً..

استجمعت نفسي وقلت:
«لن أذهب إلى موعد الطبيبة الجديدة يوم الأحد ... قلت لمشعل بكل الإصرار الذي عرفته منذ أن ولدت، قرار استخدمت فيه كل الرصيد المتوفر لدي من الشجاعة... ولكنه كان يجب أن يتخذ!

كان يجب أن تنتهي رحلة التعذيب هذه! مواعيد الذهاب إلى عيادة العقم بالنسبة لي أشبه كانت بالسوق إلى منصات الإعدام!
هناك حيث يقف المتهم على الملأ... ويتلى عليه جرمه أمام الجميع... ثم يسحب الكرسي من تحته ليضم حبل المشنقة عنقه للمرة الأخيرة
لا يهم المكان الذي تخرجت منه الطبيبة... المهم ما ستقوله في النهاية!

المثل العربي القديم يقول: آخر الطب الكي
وأظن أنه آن الأوان ليكوى هذا الجرح الذي لا يزال مفتوحاً منذ عشر سنوات

قرأت مرة مقولة لعالم الفيزياء المشهور آينشتاين يقول فيها: إن الغباء هو تكرار الشيء نفسه عدة مرات وتوقع نتائج مختلفة!
الآن أجد هذا الكلام صحيحاً على الرغم من التشكيك بصحة نسبة هذا الكلام لآينشتاين حسبما قرأت ذات يوم أيضاً،

وإذا رددت الأمر إلى الموروث العربي الشعبي هذا القول ينطبق على المقولة التي تلخص الأمر بالقول: (من يجرب المجرب عقله مخرب)
بالتأكيد ليس هذا يأساً أو تخلياً عن الحلم، بل هو مجرد استراحة بسيطة، استراحة محارب قضى عمره في محاربة الأعداء،

ولكنه بعد فترة اكتشف أن كل البطولات والتضحيات التي قدمها كانت في خياله فقط، وأنه كان خلال ذلك يحارب طواحين الهواء...
على كل حال لم أستغرب أبداً اعتراض مشعل الشديد على قراري ومحاولات إقناعي بعكس ذلك
ولكنني كنت مصرة... لن اذهب إلى الطبيبة... وبدا أن مشعل استسلم أخيراً لإرادتي التي كان واضحاً أنها لن تلين.

○○○○○

على العشاء كانت طاولة الطعام عامرة ومجهزة بكل ما لذ وطاب بانتظار المفاجأة الكبيرة التي سأفجرها بعد قليل...
عمتي (أم مشعل) إنسانة طيبة للغاية ذات قلب نقي، تحب ولدها الوحيد بلا حدود وتتمنى له الأفضل مهما كان الثمن شأنها شأن كل النساء العربيات!... ولربما أستطيع تعميم هذا الأمر على كل النساء تقريباً

لو كنت أستطيع الإنجاب كنت سأفكر بذات الطريقة أيضاً
هل يمكن أن ألومها يوماً لو فكرت بأن تزوجه امرأة أخرى؟
منطقياً، لا أستطيع أبداً بل لا أملك هذا الحق طالما أنه ضمن نطاق الشرع والقانون!

أما عملياً وفي نطاق نظرة المرأة للأمر انطلاقاً من أنوثتها المجردة فهو أمر لا يمكن قبوله بأي شكل
وبما أنني وعلى مدى عشر سنوات اتبعت نظرة المرأة التي تتعامل بأنوثتها المجردة ولم يفلح الأمر! فقد آن الأوان لاتباع ما يقوله المنطق، المنطق والشريعة التي أحد مقاصدها الخمسة حفظ النسل...

○○○○○

سقطت الملعقة من يد مشاعل على الصحن الموضوع أمامها محدثةً جلبة كبيرة بالنظر إلى الهدوء الذي عم المكان على نحو مفاجئ
كانت الأنظار مشدودة نحوي... أنظار الجميع، مشعل وأمه وأخته، وحتى نازيفا تجمدت كصنم وهي تسمع كلماتي الأخيرة

عندما قلتها للمرة الأولى لم يلق لها أحد منهم باله، مشاعل ظنها نكتة مني فضحكت للوهلة الأولى... ولكن ملامحي الجادة كانت كفيلة بأن تتجمد تلك الضحكة على نحو مفاجئ...

عندما أعدت الكلام مرة أخرى شعرت بأن كل شيء توقف... كل شيء تخيلت المشهد كما لو أنه في أحد أفلام الآكشن، عندما يتوقف كل شيء وتبدأ الكاميرا بالدوران حول شيء أو شخص ثابت لتصوره من جميع الجوانب والجهات

تطلب الأمر زمناً يقترب من الدقيقة حتى فهم الجميع أنني لا أمزح وأني جادة في كل كلمة قلتها
كانوا جميعاً يتبادلون نظرات مذهولة ومتنقلة بينهم وبيني وحتى نازيفا أيضاً شاركتهم تلك النظرات
هز مشعل رأسه كما لو أنه يريد أن يفيق من حلم وبحركة عفوية قرب كفه من جبيني محاولاً أن يعرف فيما إذا كانت حرارتي مرتفعة، ولكنه ازداد دهشة عندما تبين أن وضعي مستقر وأن علاماتي الحيوية على أحسن ما يرام

بالتأكيد لم يكن الامر سهلاً على الإطلاق... تطلب الأمر الكثير والكثير من الشجاعة وبرودة الأعصاب حتى أنطق تلك الجملة، ولكنها في النهاية خرجت من بين شفتي، هذه الجملة التي كنت أسمعها فقط في أسوأ كوابيسي... وأقوم بعدها مستعيذة من الشيطان الرجيم وكأنني داخل فيلم رعب

ولكنني وطالما أنني تحليت بهذه الشجاعة لقولها أمام الجميع فهذا يعني أن الله استجاب لي استخارتي، واختار لي الأفضل في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فله الحمد على كل حال...

الأمر الآخر الذي أرجوه الآن هو أن يكون ذلك خيراً لمشعل في دينه ومعاشه وعاقبة أمره أيضاً لأنه سيكون المعني بالأمر أكثر مني.
عندما قامت عمتي أم مشعل واحتضنتني شعرت بأنني قدمت لها معروفاً لن تنساه لي على الإطلاق وهي التي كانت تحلم بأن ترى أولاد مشعل قبل وفاتها،

كانت دموعها قد بدأت بالجريان على وجنتيها وهي تحتضنني وتقبلني وكأنني عائدة من السفر بعد غياب طويل... قبل أن تلتفت لمشعل وتبارك له وكأن الامر قد تم بالفعل

حتى مشاعل كانت شفتاها ترتجفان وهي تحتضنني بحرارة وتبارك لأخيها وحده مشعل كان ما يزال يحدق بي عاجزاً عن الحراك وكأن الصدمة قد ذهبت بعقله

تطلب الأمر عدة هزات مني ومن عمتي ليستفيق من شروده ذاك ولكنه عندما انتبه نقل نظره بين الحاضرين على طاولة الطعام قبل أن يعود لينظر إلى ويطلب مني إعادة ما قلته قبل قليل

فقلت بهدوء مشددة على كل حرف أقوله ليكون مفهوماً تماماً
«علينا أن نجد عروساً لمشعل -يعني لك- في أقرب وقت»

وفـــــــاء (٢)

لم يعد سعد...
أنا أنتظر منذ أيام ولكنه لم يعد

وردت بعض الأخبار عن القافلة التي كان يسير فيها... قالوا إنها تعرضت للهجوم من قبل قطاع الطرق وإن معركة حامية الوطيس جرت بين أفراد القافلة واللصوص ولكن نتائج المعركة مجهولة حتى الآن

وأخبرتني إحدى النسوة أيضاً أن سعداً كان مفخرة الرجال في القافلة فقد قاتل بشراسة كأسد ضرغام ولم يرضّ لنفسه ولأفراد القافلة بالذل وأنه أصبح بعد ذلك حديث القبائل في الشجاعة والإقدام... ورغم ذلك لا توجد أي أخبار عنه بعد المعركة

شعرت بقشعريرة تسري في جسدي... سعد كان هناك على بعد شعرة بين البطولة والموت... موته الذي سيكون بلا شك موتي أيضاً...
أصبحت خائرة القوى تماماً... الجو مشحون بالترقب، لا أعرف ماذا سيحل بي...

نفد الطعام من البيت إلا من مؤونة لا بأس بها من التمر تركها سعد وهي عادته، وها أنا ذي أتقوت بها لأجل الطفل فقط، أما أنا فنسيت نفسي منذ اليوم الذي غادر فيه سعد البيت

يومها خرج حاملاً سلاحه وأخبرني أنه ذاهب مع أصدقاء له من الخرج بغرض التجارة...

وطلب مني قبل خروجه أن أعتني بابننا ريثما يعود وأخبرني عن شوقه المستفيض لرؤيته يوماً يسير بجانبه

ثم أمسك بي بيديه السمراوين الكبيرتين وساعديه المفتولين وشد قبضتيه على كتفي وقال لي إنني وهذا الطفل الذي في بطني أفضل ما حصل له في حياته كلها

داهمتني نوبة من النحيب وأنا أتذكر ما قاله لي
«أرجوك يا رب لا تمتحني بأمر كهذا» قلت وانا أنظر إلى السماء
اكتشفت خلال السنتين اللتين عشتهما معه أن سعداً كان تاجراً ولكنه لم يكن يفعل ذلك من أجل نفسه... بل كان يوقف كل ما يكسبه في سبل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين..

قريبات سعد لم يتركنني أبداً... كثيراً ما كن يقضين جزءاً من نهارهن عندي يسلينني ويخففن عني القلق والخوف
انتظرت بعد ذلك أياماً كثيرة لم أستطع إحصائها... ظننت أنني مكثت دهراً وأنا أنتظر... كانت كل طرقة على الباب بالنسبة لي أملاً جديداً بأن يكون سعد...

ولكن الكثير من الآمال التي بنيتها تحطمت على هذا الباب البائس
كنت أسمع كثيراً عن بطولته التي ملأ صداها الآفاق أما هو -سعد- فلم أعرف إن كان حياً أم ميتاً

وكان الأمر الوحيد الذي يبقي لدي بصيصاً من الأمل هو أن خبر وفاته لم يصل ولم أرَ جثته أمام عيني... وكذلك عبد العزيز ابن ابنة عمه كان معه في ذات القافلة أيضاً ويقال إنه شوهد وهو ينجو بحياته مع سعد...

○○○○○

ازدردت تمرتي ثم ابتلعتها بصعوبة... أشعر وكأنني أتجرع السم!
ألحقتها بكأس من الماء على عجل علها تخفف من وطأة ذلك الشعور المقيت بالحاجة إلى إخراج كل ما في بطني...

«كل؟! شر البلية ما يضحك» قلت في نفسي بسخرية مرة
أقصد كل التمرة التي ابتلعتها بصعوبة!
إنها آثار الوحم... هذا بالضبط ما كان ينقصني، لطفك وعفوك يا رب...
يوم آخر على هاوية الانتظار، لم تعد بي طاقة على ذرف الدموع، وحده القلق ظل يقتات على ما تبقى ما عصبونات صالحة في رأسي
طرقات على الباب تقاطع غثياني وهذياني هذا،

كما في كل مرة يطرق فيها هذا الباب دعوت الله في سري أن يكون سعداً هذه المرة، لأستفيق من هذا الكابوس
فتحت الباب على أمل وردي لأجد ميساء ابنة عم سعد... تأففت في سري
«لست في مزاج للثرثرة» قلت لنفسي
وبنبرة عالية قلت بملء فمي وأنا أشير لها للدخول

أهلاً ميساء... تفضلي...
دلفت نحو الداخل بخطوتين دون زيادة حتى صارت خلف الباب تماماً...
دفعت الباب لتغلقه بيد ونزعت عنها نقابها باليد الأخرى لتظهر وجهها الشاحب كما لو أنها هاربة من القبر
أفزعني منظرها... قلت بقلق وأنا أتفحص قسمات وجهها

ميساء هل أنت بخير؟
ردت بهزة من رأسها دون أن تنطيق بأي كلمة

هل هناك اخبار عن ابنك؟ قلت وقد شعرت بنيران تتأجج في صدري
ردت بهزة أخرى من رأسها أيضاً قبل أن تقول بصوت غائب لقد وصل هذا الصباح، مصاب ببعض الجراح ولكنه بخير

غمرت الفرحة قلبي وقلت: «الحمد لله» وتابعت بحماس قائلة: «وسعد هل من أخبار؟!!»

توقفت فجأة... تجمدت... سكتُّ...
قالت وهي تمد لي يداً مرتجفة تحمل محفظة جلدية صغيرة
«رحمه الله وتقبله مع الشهداء»

مشـــــــعل (٣)

لا أستطيع أن أصدق!

كل هذه الجلبة بسبب حلم راود مريم!
أنا الآن عالق بين إلحاح أمي وأخواتي على البحث عن عروس عاجلاً غير آجل، وبين طلب مريم مني أن أساعدها في تنفيذ الشق الآخر من الحلم

لا أدري ما الذي حدث لمريم فجأة... خلال أسبوع واحد... بل خلال يوم واحد تقلب حياتي رأساً على عقب...

بت أتساءل كثيراً فيما إذا كانت عزيزتي مريم بحاجة إلى طبيب نفسي!
هذا التحول الهائل بين الحال الذي كانت عليه قبل ظهر يوم الجمعة والحال الذي آلت إليه بعد ظهر ذات اليوم لا بد أنه يحتاج إلى دراسات عميقة من قبل دارسي الطب النفسي البشري!

كيف يستطيع الإنسان أن ينقلب إلى هذه الدرجة! بل ويقلب حياة من حوله بنفس الدرجة أيضاً...

قلت لها ربما نرى طبيباً نفسياً لأجل حالتك... لا يعقل أغير نمط حياتي وأسافر إلى مكان مجهول لأبحث عن أمر مجهول وكل ذلك لأجل مجرد حلم...

ولكنها رفضت... وردت علي بطرح آخر تماماً... كان تساؤلاً أكثر منه طرحاً قالت لي: لماذا لم تعترض عندما طرحت الامر أمام أمك وأختك؟، لماذا بقيت صامتاً وأنت تسمع التبريكات والتهاني وكأنك قد تزوجت وانتهى الأمر؟

«كنت مصدوماً» قلت بشكل تلقائي
والحقيقة أنني كنت أراوغ... جزء من أعماقي كان سعيداً بأن هذا القرار خرج منها هي... بهذا الشكل سأزيح عن كاهلي ألم عذاب الضمير... كرهت نفسي لأجل هذا الشعور

ولكن الحقيقة التي أردت أن تعرفها تماماً هي أن قبولي بالزواج ليس لأنني لم أعد أكن لها المودة أو الحب،

كان قبولي بذلك ناتجاً عن حاجة ملحة لدي، لأنني كنت أريد أن يكون عندي أطفال، ولو حدث ذلك معها! لو أنها أنجبت لي طفلاً واحداً ما كان ليخطر ببالي يوماً ان ترف عيني إلى غيرها...

أردتها أن تعرف بشدة بأنها ربيع قلبي... وأنني ما زلت أراها أعظم نعمة وهبها الله لي...

ولكنني آثرت الصمت...
أثرت الصمت لأنني كنت أعرف أن كل هذا الكلام لن يهمها طالما أنني رضيتُ أن تشاركها حياتي امرأة أخرى

قالت بعد برهة من الصمت وهي تحدق بوجهي المضطرب:
«والآن... بعد أن زالت الصدمة... أنت لا تتحدث عن الزواج، لنقل إنك لم ترفضه... أبداً... ما ترفضه هو تنفيذ الجزء الآخر من الحلم... وتريد أن تعرضني على طبيب نفسي لأنه مجرد حلم،

وتتجاهل حقيقة أن موضوع زواجك هو جزء من الحلم أيضاً»
لقد حشرتني في الزاوية... لم يخطئ من قال إن النساء أكثر ذكاء من الرجال في أمور كهذه...

إنهن كالساحرات يستطعن أن يخرجن أصغر التفاصيل المحشوة في سويداء القلب.. دون أي عناء، كيف يستطعن فعل ذلك؟
قلت -وكنت صادقاً هذه المرة- لن اتزوج إن كان في الأمر ما يؤذيكِ صدقيني

فردت: «صدقني، سيؤذيني... وسيؤذيني بشدة في بادئ الأمر... ولكنه سيزول، متأكدة من ذلك، لقد استخرت الله وأنا أحسن الظن به... سينتشلني منها إن شاء... أما انت فيجب أن تتزوج لأن هذا حقك كل ما أريده منك هو أن تساعدني على حل لغز الجزء الآخر من الحلم
بحثت عن طريقة لأتملص من الأمر برمته... قبل هذه الدوامة كان الأمر أسهل بالنسبة لي، لقد صعبتها مريم علي كثيراً، ولكنها لم تترك مجالاً حتى لأتكلم

بعد دقيقتين وجدتني أعدها بالأمرين معاً سأتروج وسأساعدها في حل لغز الجزء الآخر من الحلم...

أيعقل أننا نحن الرجال ضعفاء إلى هذا الحد أمام كيدهن؟
إن كيدهن عظيم...

مريـــــــم (٣)

غارقين في الطين كنا أنا وهو... طين لزج أسود اللون وكنا كلما تحركنا فيه محاولين النجاة نزداد غرقاً
غمرنا الطين حتى رقابنا...

حتى تراءى لنا الموت أمام أعيننا وسط الظلام الذي كان يلفنا وأوشكنا على الهلاك...

كان مشعل يغرق بسرعة أكبر حتى خلت أن الوحل سيبتلعه قبلي... خفت أن يمسه سوء حتى إنني نسيت نفسي... أردت أن أصرخ
أحاول الصراخ طلباً للنجدة فيخذلني صوتي...وأفح كأفعى مضطربة...

ومشعل إلى جانبي غارق في الطين حتى شحمتي أذنيه... مشهد مفزع كأنه القيامة..

فجأة يظهر لنا من بين الظلام ظل بشري... ثم أرى يداً تمتد لتنتشلني من مغرقي...

يد أنثوية سمراء معصمها محاط بسوار رقيق من الذهب الأصفر المزين محيطه بحبات لؤلؤية صغيرة متباعدة، تتطاول اليد حتى تتشابك أصابعنا وتسحبني ببطء نحو الضفة اليابسة...
أمسك بدوري بيد مشعل وأنتشله معي وأشكر الله على نجاتنا...
وما هي إلا لحظات قليلة حتى يتبدل الظلام نوراً... ويستحيل الليل نهاراً...

اجدني ومشعل سائرين في طريق ترابي محاط بمرتفعين معشوشبين يصل حتى ركبنا، ومن حول الطريق ترتفع أشجار باسقات مخضرة في منظر يأسر الألباب،

أمامنا مباشرة أرى المرأة التي أنقذتنا من الوحل تتقدمنا بخطوات مرتدية عباءتها حتى لا أميز منها سوى سوارها الذهبي المزين باللؤلؤ، وكنا نسير خلفها وكأنها تدلنا على مكان ما...
ونحن كذلك حتى يقطع طريقنا مفترق كلا طرفيه بجمال الطريق الذي كنا نسير فيه...

أما المرأة فتسلك الطريق المتجه نحو اليمين وهي تشير لي بأن أتبعها...

أنعطفُ نحو اليمين وأهم أن أسير خلفها وألتفت لأرى مشعل يوجه ناظريه نحو الطريق المتجه نحو اليسار، هناك عند ناصيته أرى طفلاً، كأنه البدر، يناديه، ويؤثر مشعل الذهاب إليه...

وتهوي نفسي إليه أيضاً فأهم بأن أتبعهما...
لكن السيدة تشدني من ذراعي وأرى عينيها من تحت برقعها تلتمعان وكأنها تطمئنني وأسير خلفها...

نفترق أنا ومشعل...أمشي إلى المجهول خلف السيدة وقلبي يكاد ينفطر حزناً على فراقه...

فجأة أجد نفسي أمام قصر أثري غاية في الروعة بأسوار مقنطرة وتقول لي السيدة إن هذا قصر أجدادي، ثم تقودني بعيداً عن القصر إلى واحة صغيرة تحتوي على النخيل وفيها بئر ماء...

أجلس معها تحت ظل شجرة وعندنا تقول لي هنا ستجدين ضالتك...
بعد قليل أرى مشعل قادماً من بعيد حاملاً ولده وهو يلوح لي...
راودني الحلم بشكل متكرر عدة أيام وبتفاصيله التي رويتها ذاتها...
لم أستطع أن أعرف له تفسيراً... ولكن لا شك أنه يدل على شيء ما... أنا متأكدة من ذلك وإلا لما كان تكرر معي بذات التفاصيل في كل مرة

الأمر يتعدى كونه أضغاث أحلام... كنت أشعر أنني أعرف هذه المرأة...
كانت قريبة مني جداً، قريبة إلى قلبي، وكأنني قابلتها يوماً...
تماماً كالشعور الغامض الذي ينتابنا أحياناً بأننا رأينا شيئاً ما يحدث سابقاً بنفس الجزئيات والتفاصيل
وكنت أشعر وكأن إرادة ما تريدني أبحث عن شيء ضائع وكان لا بد لي أن أجد هذا الشيء

شعور ما في أعماقي يدفعني لأن أبحث وأبحث حتى أجده... يجب أن أجده
عندما كنت أرى هذا الحلم في المرات السابقة كنت أركز أمر واحد... فكرة واحدة هي التي كانت تحتل كل مساحة تفكيري ولذلك كنت أعجز عن تقدير أو تحليل أي شيء

لطالما أزعجتني فكرة أن مشعل سيتركني لأجل طفل يتمناه كثيراً ولكنني لم أستطيع أن أهبه إياه...

ولذلك فإنني كنت غالباً ما أستيقظ منه منزعجة وأميل إلى العزلة والاكتئاب!
كنت دائماً أتجاهل أي جزء آخر من هذا الحلم رغم أن كل ما فيه مريح... وجالب للسعادة -عدا هذا التفصيل الصغير بالطبع- الإنقاذ والطريق الجميل وقصور الأجداد والبستان وبئر الماء العذب...
ولذلك عندما رأيته يوم الجمعة وفكرت فيه ككل بدا لي أكثر وضوحاً وكمالاً...

وكنت كلما تعمقت فيه من خلال تفكيري أثناء العقوبة التي فرضتها على نفسي بالعمل مكان نازيفا كنت أزداد اقتناعاً بأن تفاصيل الحلم تقودني إلى النظر بشكل عام أن أرى المشهد كاملاً كما لو أنني أراه من الأعلى.

من المؤكد أن الله حرمني نعمة الإنجاب لحكمة لا يعلمها إلا هو ولكن يقيني يقول لي إنه سيعوضني عنها بشكل أو بآخر لأنه سبحانه وتعالى عادل ولا يرضى الظلم لأحد...

كان يوم الجمعة هذا عيداً بالنسبة لي عيد أزال الله به الغشاوة عن عيني لأرى الأمور بطريقة أشمل وأعم ولأصل بذلك إلى السلام الداخلي وألقاه عز وجل بقلب سليم يوم لا ينفع مال ولا بنون!
يااااااه... أستطيع الآن استحضار هذه الكريمة بمعناها الأكبر والأجل، وأشعر بأن كلماتها بلسم لكل الجروح التي النفسية التي أصابتني وستصيبني حتى يقبض الله روحي

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ولا تخزني يوم يبعثون & يوم لا ينفع مال ولا ينون & إلا من اتى الله بقلب سليم&﴾[3] صدق الله العظيم

(3) سورة الشعراء الآيات: 87، 88، 89

مشـــــــعل (٤)

لقد وعدتها... وعلي الآن أن أتحمل تبعات هذا الوعد...

من الصعب أن تقوم بعمل لست مقتنعاً بصوابه أو بجدواه... ولكن الأصعب أن تخلف وعداً قطعته لزوجتك!... لا يشبه الأمر أي وعد آخر إن لم تنفذ ستصبح حياتك جحيماً بلا شك...

مر أسبوع على الوعد إنه يوم جمعة جديد، العطلة التي لن ارتاح فيها... كما أنني لم أرتح طوال أيام الأسبوع ما بين العمل خارجاً، وتذكير زوجتي لي بالوعد الذي قطعته لها ولم أنفذه حتى الآن
أحاول منذ الصباح أن أفك رموز الحلم أنا ومريم... تقول لي علينا أن نجد المكان ونذهب إليه لنكتشف الغرض الذي أجده هناك

«قالت لي هنا ستجدين غرضك» تقول مريم بجدية وأبتسم أنا فترمقني بنظرة غاضبة أقرب إلى الزجر منها إلى العتب..

طلبت منها أن تشبّه القصر الذي رأته في المنام فقالت إنه يشبه تلك القصور المتواجدة في الدرعية

وبنقرة واحدة على غوغل ظهرت لنا تلك القصور الجميلة...
القت نظرة عليها وبفرح قالت نعم إنه هو...

قلت أنا مندمجاً مع العملية وهي أرض الأجداد أيضاً... إنها عاصمة الدولة السعودية الأولى...

نظرة الامتنان التي رأيتها على وجهها كانت كافية لتكون مكافأتي على المجهود الذي بذلته...

○○○○○

قبل طلوع الشمس بدقائق... كنت أقود السيارة متجهاً نحو قصر سعد في الدرعية

ثمان ساعات متواصلة من المسير حتى وصلنا إلى هناك... كان الحر شديداً أيضاً... ولكن يكن هناك أي شيء يدل على وجود ذلك البستان الذي يحتوي على أشجاء نخيل أو أي بئر

بدت محتارة تماماً، لأن التفاصيل التي ما زالت تتذكرها من الحلم هي أنه في مكان محاط بالأراضي المفتوحة تماماً كتلك المتواجدة حول قصر...

بحثنا كثيراً وسألنا هناك حول المنطقة عن ارض تحوي بئراً ولكن محاولاتنا كانت عبثاً

قبل العصر بقليل دلنا أحدهم على بستان يحوي بئر ماء عذب ولكنه بعيد قليلاً عن المنطقة...استبشرت ومريم خيراً وذهبنا في الاتجاه الذي أعطي لنا، كان بستاناً يحتوي بئر ماء عذب،

إلا أن مريم اكتشفت أنها ليست الأرض التي شاهدتها في الحلم، كانت مختلفة تماماً...

مع غروب الشمس كان التعب قد أخذ منا مآخذه وكان علينا أن نجد مكاناً نرتاح ونأكل فيه فقصدنا المدينة من أطرافها ونزلنا في مطعم صغير كانت وعثاء السفر ظاهرة علينا بشكل واضح

عندها سألنا النادل اللطيف الهيئة والمعشر إن كنا ضيوفاً من مدينة أخرى واخبرته أننا من مكة وأننا جئنا إلى هنا نبحث بستان ما خارج المدينة يحوي بئر ماء عذب...

شعرت بالسخف وأنا أحدث الرجل بحديث كهذا وقلت لنفسي "أطراف المدينة ملآنة بالبساتين التي تحوي بئر ماء عذب» أي علامة تلك التي أصفها

حاولت أن أغير الحديث وأطلب قائمة الطعام على الفور ولكن النادل سكت لحظة قبل أن يقول:
«أعرف بستاناً بالقرب من المطعم، ولكنه بستان مهجور ولا يقترب منه أحد، أما بئره فقد كان قديماً سبيلاً للمارة قبل أن يجف ماؤه...»
وعرض أن يدلنا عليه إن شئنا...

هممت بشكره والقول بأنه ليس هناك داعٍ، ولكني تلقيت نكزة من كوع مريم في خاصرتي مباشرة، وعندها فهمت أن علي أن أقبل بعرض النادل

تناولنا عشاءنا على عجل وانطلقنا برفقة الرجل الطيب ليدلنا على مبتغانا...

عندما وصلنا ورغم الظلام الذي يلف المكان والوحشة الظاهرية إلا انني شعرت بألفة غريبة...

كان المكان أرضاً واسعة، وكان من الواضح أن التوسع السكاني جعلها جزءاً من المدينة، ومع ذلك فقد كانت متروكة ومهجورة تنمو فيها الأعشاب حتى تكاد تكون بطول الإنسان

نظرت إلى مريم فوجدتها وقد أغمضت عينيها في محاولة منها لتذكر الحلم واستشعار المكان، ثم هتفت وقد غمرتها السعادة... نعم هذا هو المكان

لا أدرى لماذا غمرتني الفرحة أيضاً... ليس شعوراً بالفرحة بالقدر الذي كان فيه شعوراً بالارتياح.... يشبه ذلك الشعور الذي ينتاب المرء عندما ينفذ وصية... أو يفرج كرباً... أو يؤدي ديناً عن شخص آخر... عندما يشعر بألم أي إنسان آخر ويحاول أن يجبر كسره

عندما وضعت رأسي على الوسادة في تلك الليلة... دعوت الله أن يجبر كسري وكسر مريم أيضاً.

استيقظت صباحاً على صوت مريم... كانت تأن وتتألم...

اضطررنا في الليلة السابقة للمبيت في أحد فنادق الدرعية... ما حققناه بالأمس بحاجة إلى إتمام اليوم... كان لدينا الكثير لنفعله...
ولكنني قلقت عليها... سألتها أن نذهب إلى العيادة لنتحرى الأمر... ولكنها رفضت..

«أرأيت؟ هذا ما يحدث لي عندما آكل طعاماً من خارج المنزل، لا شك أن الطعام الذي أكلناه في ذلك المطعم أمس كان ملوثاً « قالت لي وهي تضع إحدى يديها على بطنها واليد الأخرى على فمها وتحاول منع نفسها من التقيؤ»

كان كلامها منطقياً على الرغم من أن المطعم لم يبدُ بذلك السوء!، ثم فكرت: السفر والطعام وربما بعض البرد، كلها أشياء قد تسبب لها شيئاً مما هي فيه الآن... أو هذا ما كنت أظنه فقط...
الأمر المريح أن حرارتها لم تكن مرتفعة

لم يكن مرض مريم ضمن توقعاتنا... لم أضع احتمالاً كهذا أبداً... ولكن حالتها تلك قلبت موازين خططنا على أية حال...

طلبت منها البقاء في الفندق ريثما أتابع أنا أمر تلك الأرض عن كثب، واشترطت عليها بأن تكلمني إذا شعرت بسوء حالها أكثر...

قصدت السجل العقاري في مدينة الدرعية.. وسألت عن ملكية الأرض بالاعتماد على الموقع الجغرافي بالاستعانة بخرائط القمر الصناعي، واستطعنا بواسطتها تحديد مكان الأرض بدقة، ولكن الغريب هو أن تلك البقعة بالذات لم يكن لها أي تسجيل في دائرة السجل العقاري
«هل يمكن أن يحدث هذا» قلت للموظف الذي بدا متعاوناً وصبوراً جداً... حتى إن الفضول انتابه بشأن هذا المكان الذي انتبه للمرة الأولى أنه لا يعرف عائديته وملكيته، وهو الذي يستطيع عادة بنقرة واحدة أن يفصل تاريخ أي، ومعرفة أي شخص تملكه حتى ولو ليوم واحد

«يبدو أنه حدث» قال متنهداً وقد بدا يائساً من معرفة أي طرف خيط يوصلني لما أريد أو يرضي فضوله وكبرياءه المهني المسفوح...

أمسكت رأسي بكلتا يدي وقد اجتاحني شعور بخيبة الأمل...
«لكن هذا يعني أمراً واحداً» هتف الموظف مبتهجاً بالخاطر الذي كان غائباً عنه وتابع دون تردد
«وهو أن تكون مسجلة لدى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية...

بدت لي فكرة صائبة... «ربما تكون هذه الأرض وقفاً ما» قلت في نفسي وانا أحاول تحليل الأمر بشكل منطقي...

ثم قلت مشككاً بكلام الموظف: «ولكن ما أعرفه أن العقارات الموقوفة لا بد أن تسجل في السجل العقاري، لأن ذلك هو الوسيلة لإثبات الوقف»

رفع الموظف كتفيه فغاص رأسه بينهما مبدياً استغرابه هو الآخر ثم قال كمن وجد تفسيراً «ربما يكون هذا هو الخطأ الذي جعل هذه الأرض مهجورة حتى هذه اللحظة رغم أنها أصبحت ضمن توسع أراضي المدينة»

وأضاف: «قد تكون موقوفة ولكنها منسية ومتروكة لأنها غير مسجلة في السجل العقاري لسبب ما»

«مثل ماذا؟» قلت بفضول
قال الموظف بعد أن دارات عيناه في محجريهما دورة كاملة بينما يحاول أن يفكر بسبب منطقي: «كأن تكون الأرض موقوفة منذ زمن بعيد... وثيقة الوقف قديمة جداً أو مهترئة مثلاً، أو لم تسجل في السجل العقاري سهواً»

بهذا الشكل أضحت الصورة أكثر وضوحاً كل الخيوط أصبحت منطقية اكثر الآن...

○○○○○

أطبق موظف الأوقاف جفنيه نصف إطباق وهو يقرب وجهه من شاشة حاسوبه حتى المسافة صفر تقريباً محاولاً أن يحصل على رؤية أوضح، وتمتم وهو في وضعيته تلك: «س.. س.. عد»

ثم التفت نحوي وقال بثقة: «نعم يا سيدي هذه الأرض موقوفة منذ زمن بعيد... صك وقفها موجود ولكنه قديم جداً ولم أتبين الاسم جيداً على النسخة المصورة ربما يكون أوضح لو بحثنا عن الصك الأصلي... وهي موقوفة لصالح رعاية الأيتام»

قلت بحماس: «حسناً لنبحث عن الصك الأصلي»
«هل أنت متأكد؟» قال الموظف وهو يرمقني بنظرة باردة خالية من أية مشاعر لم أفهم سببها إلا عندما وقفنا في غرفة البحث وشاهدت الاكوام التي كان علينا أن نبحث بينها

○○○○○

وفـــــــاء (٣)

من البعيد تبدو لي أسوار جدة... ها أنا ذي أعود من جديد...
أعود إلى وحدتي وقهري مرة أخرى...
وكأن الهموم والأحزان لا تريد أن تفارقني...

رحل الرجل الذي ظننت أنني ولدت معه إلى دنيا جديدة.... دنيا وردية غير تلك الحالكة التي عشتها قبله هنا في هذه المدينة التي أعود إليها

كنت أتخيل وجه زوجة عمي وهي تراني أدخل إلى البيت الذي ارتاحت من وجودي فيه... ولكن قدري لم يترك لها مجالاً لتتمتع بذلك الانتصار... ولذلك ستلجأ إلى انتصار من نوع آخر تماماً كذلك الذي كانت تذيقني إياه قبل أن أتزوج

مع ذلك لم أكن مهتمة كثيراً... لقد أنساني ألم فقد سعد طعم أي ألم آخر... بعده فقدت تماماً الإحساس بالألم

رحل حتى دون أن أستطيع أن ألقي عليه نظرة واحدة

عزائي الوحيد كان هو أن سعداً مات كما يحب... مقبلاً غير مدبر... مات دون ماله ومال رفاقه فكان شهيداً بإذن الله

قضيت الليالي التي تلت نبأ وفاة سعد هائمة على وجهي في البيت الخالي إلا من طيفه...

كنت عاجزة عن التفكير في أي شيء... حتى بذلك الجنين المسكين الذي لم يعرف طعم السعادة منذ أن استقر في أحشائي...

كنت حزينة... غاضبة وحانقة... دعوت من كل قلبي أن يمحو الله أي أثر لكل اللصوص والقتلة عن وجه الأرض

قال ابن ميساء إن سعداً قاتل بكل بسالة وقتل خمسة رجال من قطاع الطرق وإنه عندما انسحب من أرض المعركة كان ذلك من أجل يسعفه بعد أن أصيب في ساقه... ولكنه أثناء ذلك تلقى رصاصة في مكان قاتل...

جاء عمي على عجل بعد أن أرسل له أقارب سعد ليعلموه بما حدث ولكي يأتي لاصطحابي معه إلى جدة ريثما أضع طفلي

يوم توفي سعد أرسل لي مع ابن أخيه محفظة جلدية صغيرة فيها مصاغ ذهبي رقيق وسند ملكية لقطعة أرض كان قد اشتراها سابقاً وترك معها رسالة مقتضبة تقول:
«ابني أمانة بين يديكِ... وما هو موجود في هذه المحفظة هو كل ما لدي... لقد أوقفت الأرض لرعاية ابني ورعاية كل يتيم في هذه المدينة... أطلب منك فقط أن تسامحيني... وأن تحافظي على أموال ولدي... لا أريده أن يحتاج أحداً»

شققت جموع الطائفين متكئة على كتف ابني «سعد» الذي بدا أمامي كجبل حتى وصلت إلى جدار الكعبة المشرفة...

رفعت يدي وتعلقت بأستارها وتضرعت إلى الله عز وجل أن يتقبل من سعد ما وهب وأن يحفظ ماله وعينه إلى يوم القيامة... بذلك أكون قد أبرأت ذمتي لسعد أمام الله...

تحسست السوار الذهبي الرقيق المزين بحبات صغيرة ومتباعدة من اللؤلؤ والذي تركه سعد لي وترحمت عليه وأشهدته واشهدت الله أني قد أديت أمانته...

مشـــــــعل (٥)

أخذت رشفة من قهوتي الصباحية...
جلست على الشرفة أرتشف قهوتي الصباحية،
داعبت بأصابعي وجنتي طفلي «ناصر» الذي يبدو منزعجاً بسبب ظهور أسنانه...

تأملت وجهه الملائكي البريء فامتلأ صدري بالسعادة والرضا ووجدتني ألهج بالشكر والثناء لله عز وجل الذي وهبنيه بعد طول انتظار
تناولت الجهاز اللوحي عن الطاولة... الأخبار تملأ الصحف والمواقع الإلكترونية عن أرض كانت موقوفة منذ زمن طويل خارج مدينة الدرعية، يعود ريعها للأيتام...

وقف أعاد إحياءه الدكتور مشعل عمران... واليوم تقدر قيمة هذا الوقف بمبلغ مئة وخمسة عشر مليون ريال... فإذا صلحت النية تقبل الله العمل، وحفظ الله مال الواقف كل حسب نيته
أعيد الجهاز اللوحي إلى الطاولة وأنظر إلى مريم وهي قادمة... تتجه مباشرة إلى ابننا فتحتضنه وتداعبه
وتشكر الله عز وجل أن وهبها «ناصر» بعد طول انتظار

تم بحمد الله

رَبِيعُ اللؤلؤ

غمرنا الطين حتى رقابنا...
حتى تراءى لنا الموت أمام أعيننا وسط الظلام الذي كان يلفنا وأوشكنا على الهلاك...
كان مشعل يغرق بسرعة أكبر حتى خلت أن الوحل سيبتلعه قبلي... خفت أن يمسه سوء حتى إنني نسيت نفسي... أردت أن أصرخ
أحاول الصراخ طلباً للنجدة فيخذلني صوتي...وأفح كأفعى مضطربة...
ومشعل إلى جانبي غارق في الطين حتى شحمتي أذنيه...
مشهد مفزع كأنه القيامة..
فجأة يظهر لنا من بين الظلام ظل بشري... ثم أرى يداً تمتد يد لتنتشلني من مغرقي...
يد أنثوية سمراء معصمها محاط بسوار رقيق من الذهب الأصفر المزين محيطه بحبات لؤلؤية صغيرة متباعدة، تتطاول اليد حتى تتشابك أصابعنا وتسحبني ببطء نحو الضفة اليابسة...
أمسك بدوري بيد مشعل وأنتشله معي وأشكر الله على نجاتنا...
وما هي إلا لحظات قليلة حتى يتبدل الظلام نوراً... ويستحيل الليل نهاراً...

لجنة الأوقاف بغرفة الرياض
غرفة الرياض Riyadh Chamber
9 786039 134084